

الْيَوْمُ الْآخِرُ

عناصر الموضوع

١٥٦	مفهوم اليوم الآخر
١٥٧	اليوم الآخر في الاستعمال القرآني
١٥٨	أسماء اليوم الآخر
١٦٣	أوصاف اليوم الآخر
١٧٠	الأدلة القرآنية علىبعث بعد الموت
١٩٠	أبرز أحداث اليوم الآخر
٢١٤	المآل والمصير

مفهوم اليوم الآخر

أولاً: المعنى اللغوي

بداية لا بد من إعطاء معنى لغوي للفظي: (اليوم) و(الآخر); لكون مصطلح الدراسة مركب منها، وذلك بالرجوع إلى معجمات اللغة.

اليوم لغة: تدور دلالة اليوم غالباً في المعجمات اللغوية على الزمن المقيد أو المطلق، فاليماء والواو والميم: كلمة واحدة، هي اليوم المعروف، وهو غالباً عند العرب في كلامها يدل على النهار من طلوع الشمس إلى غروبها، وقد تطلقه على الليل والنهار كليهما. وقد يستعمل اليوم في اللغة للدلالة على مطلق من الزمن أي: الوقت الحاضر من الزمان^(١). وقد يراد به «الوقت مطلقاً، ومنه الحديث: (تلك أيام الهرج)^(٢) أي: وقته»^(٣). ومن معاني اليوم لغة أيضاً: الدهر، ويستعمل أيضاً بمعنى: الدولة وزمن الولايات، وبمعنى: الواقع. ويستعار عند العرب للشدة والأمر العظيم^(٤).

الآخر لغة: خلاف الأول والمتقدم ونقضهما، وهو من الفعل أخرته فتأخر، يقال: جاء آخر، أي: أخيراً، والجمع: أواخر، والآخر من أسماء الله تعالى قال تعالى: **هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالباطِنُ** [الحج: ٣].

والآخر: هو الباقي بعد فناء خلقه كله الذي ليس بعده شيء^(٥).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

فقد تطور من معناه اللغوي وأخذ منه في معنى مناسب له في الكلام. ولليوم الآخر تعريفات عدة عند العلماء متقاربة.

ويمكن تعريفه بأنه اليوم الذي يبعث الناس فيه للحساب والجزاء، وسمي بذلك؛ لأنه آخر انفراط الدنيا وأخر أيامها ولا يوم بعده، فهو آخر الأوقات المحدودة الذي لا حد للوقت بعده^(٦).

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/٤٦٣، لسان العرب، ابن منظور ١٢/٦٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في سنته، كتاب الفتن، باب النهي عن السعي في الفتنة، رقم ٤٢٥٨/٦، ٣١٤.

(٣) لسان العرب، ابن منظور ١٢/٦٤٩.

(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٤/١٤٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٦/١٥٩.

(٥) انظر: تهذيب اللغة ٧/٢٢٧، تاج العروس ١٠/٣٤.

(٦) انظر: العقد الشيني في شرح أحاديث أصول الدين، حسين بن غنام، ص ٥٧.

اليوم الآخر في الاستعمال القرآني

ورد (اليوم الآخر) في القرآن الكريم (٢٨) مرة ^(١).
والصيغة التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
اليوم الآخر	٢٨	﴿وَلَمَّا يَعْمَرُ مَسْكِنَ اللَّهِ مَنْ مَاءَمَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبه: ١٨] ^(٢)

اليوم: اسم لما بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس، والآخر: خلاف الأول ويعده،
و(اليوم الآخر) في الاستعمال القرآني: اسم يطلق على يوم القيمة، ولم يخرج في الاستعمال
القرآني عن هذا المعنى ^(٢).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢١، ص ٧٧٥-٧٧٠،
المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الهمزة ص ٣٤-٣٥، باب الياء ص ١٤٤٢-١٤٤٨.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤١٣/٥، نزهة الأعين النواطر، ابن الجوزي،
ص ٦٣٦، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٣٥٩/٤.

أسماء اليوم الآخر

المسمى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته، وكثرة أسماء يوم القيمة دلت على كمال شدته وصعوبته، وكثرة أسماء الداهية دلت على شدة نكايها، وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال جلال عظمته، وكثرة أسماء النبي -عليه الصلاة والسلام- دلت على علو رتبته، وسمو درجته، وكذلك كثرة أسماء القرآن دلت على شرفه، وفضيلته؟!»^(١).

والقرآن الكريم عندما يستعمل هذه الألفاظ للدلالة عن ذلك اليوم العظيم، فإن كل لفظ منها يجلب صفة من صفاته وأهواله، و«كلها تشير إلى انفراط عقد هذا الكون المنظور، واحتلال روابطه وضوابطه التي تمسك به في هذا النظام البديع الدقيق، وتثير أجزائه بعد انفلاتها»^(٢) من هذه الروابط والضوابط التي تضبطها بقدرة الله وإرادته. كما أن تعددتها وتجمعتها على صعيد واحد يقرب إلى الأذهان والقلوب على نحو من التوكيد صورة ذلك اليوم على الكون والانسان وأهواله وشدته، فيحدث الاستجابة النفسية التي يهدف إليها القرآن، والملاحظ أن هذه الألفاظ أغلبها قد جاءت في سور مكية التي من أبرز أهدافها

لإحاطة بدلالة اليوم الآخر في التعبير القرآني لابد من دراسة الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم تدل على اليوم الآخر وتشير إليه من قريب أو بعيد، وإذا نظرنا في القرآن الكريم نرى كثرة في الألفاظ الدالة عليه وتعددها بشكل لافت، وكل ذلك تقرير لحقيقة هذا اليوم وبيان ماهيته، وما يجلبه أمام العيان عن طريق وهي الألفاظ الدالة عليه.

وتoward هذه الألفاظ في القرآن الكريم التي هي بعضها أسماء له، وتنوعها وكثرتها يدل على عظيم قدره وほله وشدته وبين شدة أحوال ذلك اليوم وتأثيره في الناس قوله تعالى: ﴿تَأْيِهَا النَّاسُ أَتَقْوَى رَبَّكُمْ إِنَّ زَلَّةَ السَّاعَةِ شَدِيدٌ ۚ يَوْمَ تَرَوُنَهَا تَذَهَّلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرَضَعَتْ وَقَضَعَ كُلُّ ذَاتٍ حَمَلَ حَلَّهَا وَرَوَى النَّاسُ شَكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِشَكَرَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢-١].

بالإضافة إلى ذلك فإن كثرة أسمائه وأوصافه تدل على أهميته وشرفه؛ لأن كثرة الأسماء والأوصاف الدالة على الشيء الواحد تدل على شرف المسمى وكماله غالباً، قال الفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ): «اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف

(١) بصائر ذوي التمييز /١٨٨.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب /٦٣٦٧٩.

أَصَدَّقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا [النساء: ٨٧].

وقوله: **وَتَخْرُجُوهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ غَبَّاً وَيَكْمَأُ وَصَمَّاً مَاؤَهُمْ جَهَنَّمَ كُلُّمَا خَبَثَ زِدَنَهُمْ سَعِيرًا** [الإسراء: ٩٧].

وغيرها من الآيات الكريمة. والقيامة لغة: مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث؛ للبالغة، وسمى بذلك؛ لما يقوم فيه من الأمور العظام التي بيتها النصوص. ومن ذلك قيام الناس لرب العالمين ^(٢).

٢. الساعة.

من الألفاظ الدالة على ذلك اليوم العظيم أيضاً: الساعة، وورد هذا اللفظ تسعاً وثلاثين مرة في خمس وثلاثين آية من آيات القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: **إِنَّ السَّاعَةَ لَآتَيَةٌ لَا رَبَّ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَوْمَنُونَ** [غافر: ٥٩].

وقوله تعالى: **وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَيَشَأُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يَوْمَكُونُ** [الروم: ٥٥].

وقوله تعالى: **يَتَابُ إِلَيْهَا النَّاسُ أَتَقُولُ رَبِّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَوَّهٌ عَظِيمٌ** [الحج: ١].

وغيرها من الآيات. وأطلق لفظ الساعة على اليوم الآخر؛ إما لقربه، أو لأنه يأتي بعنة، أو في لحظة، أو في ساعة معينة وإذا باليوم الآخر قد قام، والناس غير متبعين.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبراني. ٥١٨ / ٢.

تأسيس أصول الدين والعقيدة السليمة في القلوب، وهي توحيد الله تعالى في ألوهيته وربوبيته للكون والخلائق جميعاً، وفي مقدمتها: الإنسان الذي كرمه الله أياً تكريمه وفضله على كثير من خلق تفصيلاً، لذلك كان من «صفات السور المكية وبخاصة السور القصيرة منها أنها ذات أسلوب وإيقاع قويين شديدين في وقهما يعملان على قرع القلوب بحقائقها التي تؤديها» ^(١)، ومنها هذه الألفاظ الدالة على اليوم الآخر التي ترد كثيراً في مطالع هذه السور وفي آياتها فتلت الآباء لفتاً قوياً في تلقي المعاني والأصول الكبرى للدين الحنيف، وستتناول في هذا الموضع بالتفصيل أسماء اليوم الآخر والألفاظ ذات الصلة به؛ لنجاول أن نجلي للمتلقي ونكشف له عن المعنى الذي ينطوي وراءها قدر الإمكان:

١. القيامة.

جاء هذا اللفظ للدلالة على اليوم الآخر في سبعين آية من آيات القرآن الكريم، وهو من أجلى الأسماء والصفات لذلك اليوم وأشهرها. ولم يرد هذا الاسم إلا مركباً (يوم القيمة) من ذلك قوله تعالى: **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْعَلُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِي يَوْمٍ وَمَنْ**

(١) انظر: التعبير الفني في القرآن، بكري شيخ أمين، ص ٢٥٢.

بالثاء، وأوثر التعبير بلفظ (الواقعة) على وزن (فاعلة)، ليدلّ على العموم والشمول والشدة والمبالغة^(٣).

٤. الحاقة.

جاءت **الحاقفة**، للدلالة على اليوم الآخر ثلاث مرات في موطن واحد عند قوله تعالى: **الحاقفة ① ما الحاقفة ② وما أدرتك مالحاقفة ③ كذبت ثمود وعاد بالقارعة** [الحاقفة: ٤-٦].

سمى بذلك؛ لأن فيها يتحقق الوعد والوعيد؛ ولهذا عظم تعالي أمرها فقال: **وما أدرتك مالحاقفة**^(٤). أو أنها: «سميت بذلك لأن فيها الشواب والجزاء»^(٥). إضافة إلى ذلك أن في إطلاق لفظ **الحاقفة** على اليوم الآخر دلالة على العموم والشمول والشدة والمبالغة في إثبات المعنى، وهو اسم على وجه التخصيص ليوم القيمة، أي: إنها تحق الحق في ذلك اليوم الذي لا يحيط به العلم والإدراك.

٥. الغاشية.

جاء لفظ **الغاشية** للدلالة على اليوم الآخر في موضع واحد في قوله تعالى: **هل أنت حديث الغاشية** [الغاشية: ١].

سمى بذلك؛ لأنه يغشى الناس بأفراعه

(٣) انظر: معاني الأبنية في العربية، فاضل السامرائي ص ١٢٣.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٠٨/٨.

(٥) معاني القرآن، الفراء ١٧٩/٣.

قال القرطبي رحمه الله: «والساعة بالألف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنت فيه، وهو المسمى بالآن، وسميت به القيامة إما لقربها، فإن كل آن قريب. وإنما تكون سمي بها تنبيها على ما فيها من الكائنات العظام التي تصهر الجلود. وقيل: إنما سميت بالساعة؛ لأنها تأتي بعنة في ساعة»^(١).

٣. الواقعة.

يأتي لفظ الواقعة للدلالة على اليوم الآخر في موطنين من القرآن الكريم فقط، وذلك في قوله تعالى: **إذا وقعت الواقعة ① ليس لوقعها كاذبة ② خافضة راقعة ③ إذا رحت الأرض رجأ ④ ورست الجبال بسأ ⑤ تكونت هباءً مُثبناً ⑥ ورثتم أزونجاً ثالثة** [الواقعة: ١-٧].

والمموطن الثاني في قوله تعالى: **فإذا نفع في الصور نفعه وتحده ⑦ وجعلت الأرض وللجبال فدكًا دكًا وتحده ⑧ في يوميذ وقعت الواقعة** [الحاقفة: ١٣-١٥].

وسمى بالواقعة؛ لتحقق كونه وجوده؛ لأنه يقع لا محالة، أي: إذا وقعت التي لا بد من وقوعها، ووقوع الأمر نزوله^(٢). وللفظ (الواقعة) من الأسماء التي انتقلت من الوصفية إلى الاسمية؛ لأنها ختمت

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ٥٤٦.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/٤٥٥.

الكون كله، يقال: أصابتهم قوارع الدهر، أي: أهواه وشدائد ^(٢)، وأصل القرع: «الضرب بشدة وقوة، تقول العرب: قرعتهم القارعة وقرتهم الفاقرة» ^(٣): إذا وقع بهم أمر عظيم» ^(٤)، ويعمق هذا الإيحاء الإيقاع المنبعث من حروف **«القارعة»** (الكاف والراء والعين) المعروفة بقوتها وشدتها.

٧. الأزفة.

ورد هذا اللفظ في موضعين الأول مضافاً إلى اليوم في قوله تعالى: **﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْخَاجِرِ كَطْبَيْنَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَيْسٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾** [غافر: ١٨].

والثاني مجردًا في قوله تعالى: **﴿أَرَفَتِ الْأَزْفَةَ﴾** [النجم: ٥٧].

وسمى اليوم الآخر بـ **«الآزفة»** لأن زففه، أي: لقرب وقوعه، وضيق وقته؛ لأن الأزف: ضيق الوقت ^(٥).

واليوم الآخر قريب جدًا، وكل آت فهو قريب وإن بعد مدة، وهو بعد ظهور علاماته أكثر قريباً. ولا يخفى ما للفظ **«الآزفة»** من تعظيم لشأنه وتفخيمه فهي قد «اقتربت

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧/٤٣٦.

(٣) فقرتهم الفاقرة: أصابتهم مصيبة أو داهية كسرت فقار ظهورهم.

انظر: لسان العرب ٥/٦٢، مادة فقر.

(٤) صفوة التفاسير، الصابوني ٣/٥٦٨.

وانظر: لسان العرب ٨/٢٦٥، مادة قرع.

(٥) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٥.

وأهواه وشدائده وغمهم، ومن معانيه أنَّ الكفارَ تغشَّهم النار، وتحيط بهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَقْشَّبُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾** [العنكبوت: ٥٥].

أو سمي بذلك؛ لأنَّه يغشى الناس من كل جهة أو بسبب مشاهدته المفزعة تغشى الناس فجاءة، ولا يخفى ما لهذا اللفظ من تصوير للهول الذي يحل بالخلق يوم القيمة، وفي ذلك تهويل له في القلوب، ففيه إثبات لشاهدته ودليله فهو يغشى الناس بعد ابهاده ويلبسهم أهواه، قال الزمخشري رحمة الله: **«الافتئية»** الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهواها» ^(٦).

٦. القارعة.

ورد هذا اللفظ للدلالة على اليوم الآخر أربع مرات في موطنين الأول في قوله تعالى: **﴿كَذَّبَتْ تَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾** [الحاقة: ٤].

والثاني تكرر اللفظ فيه ثلاثة مرات في سورة القارعة وذلك في قوله تعالى: **﴿الْقَارِعَةُ ١١ مَا الْقَارِعَةُ ١٢ وَمَا أَذْرَكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾** [القارعة: ١-٣].

وسمى بالقارعة؛ لأنَّه يครع القلوب والأسماع بفنون الأهوال والأفزع لعظيم ما يتزل بهم من البلاء عندها، ويقرع الكون بالدمار والتحطم وتغير فيه معالم

(٦) الكشاف ٤/٧٤١.

وقيل: **الراجفة**: الأرض والجبال، من قوله: **يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ** [المزمول: ١٤].

و**الرادفة**: السماء والكواكب؛ لأنها تنشق وتتشتت كواكبها على أثر ذلك»^(٢).

٩. الصاخة.

ورد لفظ **الصاخة** في موضع واحد في قوله تعالى: **فَإِذَا جَاءَتِ الْصَّاخَةُ**^(٣) **يَوْمَ يَقْرِئُ الْمُرْءَ مِنْ أَنْهِيَةِ**^(٤) **وَأَمْمِهِ**^(٥) **وَصَاحِبِهِ**^(٦) **وَبَنِيهِ**^(٧) **إِلَكُلِّ آمِرٍ يَنْهَمُ يَوْمَ زِدْرُ شَانِ يَقْنِيَهُ** [عبس: ٣٣].

.٣٧

وسمى اليوم الآخر بالصاخة؛ «الشدة صوتها؛ لأنها تصحح الأذان، أي: تصممها فلا تسمع»^(٨)، فهذا اليوم العظيم يصحح الناس فيه صخاً بأحواله الشديدة، ومما يعزز هذا المعنى ويعمقه جرس اللفظ، فهو جرس شديد «يكاد يخرق صمام الأذن، وهو يشق الهواء شقاً، حتى يصل إلى الأذن صاخاً ملحاً»^(٩).

١٠. الطامة الكبرى.

جاء لفظ **الطامة الكبرى**؛ ليدل على اليوم الآخر في موضع واحد في قوله تعالى: **فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَةُ الْكُبْرَى**^(١٠) **يَوْمَ يَذَكُّرُ الْإِنْسَانُ مَاسِعَ** [النازعات: ٣٤-٣٥].

وسمى بـ **الطامة الكبرى**؛ لتفظيعه في

.٢٩٣/٤ الكشاف.

.٤٦٦/٥ فتح القدير، الشوكاني.

.٣٨٣٤/٦ في ظلال القرآن.

كاسحة جارفة، وهي الطامة والقارعة التي جاء النذير يحدركم إليها، أو هو العذاب الذي لا يعلم إلا الله نوعه وموعده، ولا يملك إلا الله كشفه ودفعه: **لَئِنْ لَّهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ**^(١).

٨. الراجفة والرادفة.

ورد هذان اللفظان في موضع واحد في قوله تعالى: **يَوْمَ تَرْجُفُ الْرَّاجِفَةَ**^(١) **تَبْعَمَا الرَّادِفَةَ**^(٢) **ثُلُوبُ يَوْمِ زِدْرُ وَلِيَّةَ**^(٣) **أَبْسَرُهَا خَشْعَةَ**^(٤) [النازعات: ٩-٦].

وهما يصوران على نحو شديد ما يقع من الهول والاضطراب في الكون حينئذ، فسمى بالراجفة؛ لأن فيه تهتز السموات والأرض ويضطرب نظامهما ويدمر كل شيء فيها، أما تسميتها بالرادفة؛ لأنها تتبع الراجفة، وقيل: هما النفحتان في الصور، قال الزمخشري رحمه الله: **الراجفة** الواقعه التي ترجم عندها الأرض والجبال، وهي النفحة الأولى وصفت بما يحدث بحدوثها، **تَبْعَمَا الرَّادِفَةَ** أي: الواقعه التي تردف الأولى، وهي النفحة الثانية. ويجوز أن تكون الرادفة من قوله تعالى: **قُلْ عَسَى** **أَنْ يَكُونَ رَدَفًا لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْعَجُولُونَ** [النمل: ٧٢].

أي: القيمة التي يستعجلها الكفارة استبعاداً لها، وهي رادفة لهم؛ لاقترابها.

.٣٤١٨/٦ في ظلال القرآن.

أوصاف اليوم الآخر

تناولنا فيما سبق أسماء اليوم الآخر والألفاظ ذات الصلة به، والآن نتناول أوصاف هذا اليوم في التعبير القرآني؛ لتتضطلع ملامح هذا اليوم العظيم من خلال هذه الأوصاف.

والناظر في القرآن الكريم يجد أنَّ الله تعالى وصف اليوم الآخر بأوصاف كثيرة متنوعة، وهذه الأوصاف تبين حقيقته، فهي بمثابة التعريف به وبيان ماهيته، وستحاول الوقوف على معنى الوصف ودلاته ومناسبته لليوم الآخر في القرآن الكريم ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً:

١. يوم الدين.

يعد هذا الوصف **﴿بِوْرَاللَّيْتَ﴾** من أشهر أوصاف اليوم الآخر، وقد ورد في ثلاثة عشر موضعًا من كتاب الله تعالى، من ذلك قوله تعالى: **﴿مَلِكُ بِوْرَاللَّيْتَ﴾** [الفاتحة: ٤].

وقوله تعالى: **﴿وَقَالُوا يَوْمَكُمْ هَذَا يَوْمُ الدِّين﴾** [الصافات: ٢٠].

وغيرها من الآيات الكريمة. وأصل الدين في لغة العرب: الجزاء والحساب، «يقال: كما تدين تدان»، المعنى: كما تعمل تعطى وتجازى» **﴾٤﴾**.

ومن هنا كان المراد من يوم الدين: يوم

(٤) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/٤٧.

قلوب السامعين وتهويله في نفوسهم، فهو يطُمُ بأهواله ودواهيه الخلق لعظمته، قال البغوي رحمه الله: «وسميت القيامة طامة؛ لأنها تطم على كل هائلة من الأمور، فتعلو فوقها وتغمر ما سواها، والطامة عند العرب: الدهادية التي لا تستطاع» **﴾١﴾**. وبناء **﴿الْيَوْمَ الْآخِرُ﴾** وجرسها الإيقاعي يصوران هذا المعنى ويقربانه، فهي تدل على العموم والشدة والمباغة؛ لأنها من الأسماء التي ختمت بناء التأنيث، فانقلبت من الوصفية إلى الأسمية **﴾٢﴾**.

١١. الآخرة.

ورد لفظ الآخرة في القرآن الكريم مائة وخمس عشرة مرة، من ذلك قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يُقْرِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَمَا يَرَوْنَ مِنْ يُؤْقِنُونَ﴾** [البقرة: ٤].

وقوله تعالى: **﴿كَلَّا لَيْلَ تَحْمِلُنَ الْعَاجِلَةَ وَلَدَرْوَنَ الْآخِرَةَ﴾** [القيامة: ٢٠-٢١].

وغيرها من الآيات. و«سميت آخرة» تقدم الدار الأولى أمامها، فصارت التالية لها آخرة. وقد يجوز أن تكون سميت آخرة؛ لأنها عن الخلق، كما سميت الدنيا **﴿دُنْيَا﴾**؛ لدنوها من الخلق» **﴾٣﴾**.

(١) فتح القدير ٥/٤٥٩.

(٢) معاني الأبنية في العربية، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٣) جامع البيان، الطبرى ١/٤٥.

الحساب والجزاء الذي يحاسب ويجازي الله فيه العباد على أعمالهم وأفعالهم في الدنيا.

٢. يوم الحساب.

وصف هذا اليوم بـ **يوم الحساب** في القرآن الكريم في أربعة مواضع ثلاثة منها في سورة ص والأخر في سورة غافر، منها قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا رَبُّنَا عَمِلَ لَنَا قَطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾** [ص: ١٦].

وقوله تعالى: **﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عَذَّتْ بِرِءَقِ دَرِيَّكُمْ تِنْ كُلْ مُتَكَبِّرٌ لَا يَوْمَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾** [غافر: ٢٧].

ووصف هذا اليوم بـ يوم الحساب؛ لأن فيه يحاسب الله تعالى العباد على أعمالهم خيراً وشرها والنعم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم ومطاعهم، وغير ذلك من النعم، قال القرطبي: «يوم الحساب معناه أن الباري سبحانه يعدد على الخلق أعمالهم من إحسان وإساءة، ويعدد عليهم نعمه، ثم يقابل البعض بالبعض مما يشف عنها على الآخر حكم للمشفوق بحكمه الذي عينه للخير بالخير وللشر بالشر»^(١).

٣. يوم الجمع.

جاء وصف اليوم الآخر بـ **يوم الجمع** في مواضعين من كتاب الله تعالى، الأول: في قوله تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ أَوْجَيْنَا إِلَيْكَ فِرْعَانًا**

(١) التذكرة بأحوال الموتى ص ٥٦٢.

عَرَبَيَا لِتَنْذِرَ أَمَّا الْقَرْعَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتَنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَأَرْبَتْ فِيهِ [الشوري: ٧].

والثاني: في قوله تعالى: **﴿يَوْمَ يَجْمِعُكُمْ لِيَوْمِ الْغَابِنِ﴾** [التغابن: ٩].

ووصف الله تعالى هذا اليوم العظيم بـ يوم الجمع؛ لأنه تعالى في هذا اليوم يجمع الخالق كلها أولها وأخرها للحساب، قال الرازمي رحمه الله: «وفي تسميته بيوم الجمع وجوه: الأول: أن الخالق يجمعون فيه، قال تعالى: **﴿يَوْمَ يَجْمِعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾** [التغابن: ٩]. فيجتمع فيه أهل السموات مع أهل الأرض، الثاني: أنه يجمع بين الأرواح والأجساد، الثالث: يجمع بين كل عامل وعمله، الرابع: يجمع بين الظالم والمظلوم»^(٢).

٤. يوم الفصل.

وصف اليوم الآخر بـ **يوم الفصل** في ستة مواضع من الكتاب الكريم، وذلك في قوله تعالى: **﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُتُبَ بِهِ الْكِتَبُونَ﴾** [الصفات: ٢١].

وقوله: **﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** [الدخان: ٤٠].

وغيرها من الآيات الكريمة. والفصل: البون ما بين الشتين والجلبين وهو المفصل، ويطلق أيضاً ويراد به القضاء بين الحق والباطل، يقال: أمرٌ فيصلٌ وفاصلٌ،

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧ / ٥٨٠.

الله الخلق يبعثهم بعثاً: نشرهم»^(٤).

فهو يوم عظيم للخلق بعد الموت وانقضاء الدنيا يوم يبعثهم الله من قبورهم للحساب والجزاء، فيبتهم الله تعالى بما عملوه في الدنيا.

٦. يوم التلاق.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ«يوم التلاق» إلا مرة واحدة، وذلك في قوله تعالى: «ذُو الْعَرْشِ يَلْقَى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرُ رِبَّ الْأَنْلَاقِ» [غافر: ١٥].

ووصف اليوم الآخر به من عدة وجوه منها أنه يوم عظيم يلتقي به الخلق كلهم الأولون والآخرون، حتى يلتقي فيه آدم عليه السلام بأخر ولده، وفيه يلتقي الخالق بالملائكة، ويلتقي فيه أهل السماء بالأرض، والظالم بالمظلوم، بالإضافة إلى أنه يوم تلاقى فيه الأرواح بالأجساد، وأن كل عامل سيلقى ما عمله من خير وشر ويجازى عليه وغيرها^(٥).

٧. يوم التغابن.

جاء وصف اليوم الآخر بـ«يوم التغابن» مرة واحدة فقط، وذلك في قوله تعالى: «يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ كُلَّ الْجَمِيعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَلَا يَضُرُّهُ وَمَنْ يَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفَّرُ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ» [التغابن: ٩].

و(التغابن) على وزن تفاعل من الغبن

(٤) لسان العرب ٢/١١٧، مادة بعث.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم ٧/١٣٥ - ١٣٦.

أي: قاطع^(١).

ووصف اليوم الآخر بـ يوم الفصل؛ لأنَّ اليوم الذي يفصل فيه بين عباده الأولين والآخرين بأعمالهم فيما كانوا فيه يختلفون، وفيما كانوا فيه يختصون، قال تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَقْصُلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلُونَ» [السجدة: ٢٥].

إضافة إلى ذلك أنه اليوم الفاصل الذي يبين الحق فيه من الباطل^(٢).

٥. يوم البعث.

ورد وصف اليوم الآخر بـ«يوم البعث» مررتين في موضع واحد من كتاب الله تعالى في قوله تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِلَيْهِمْ لَقَدْ لَيَتَّمَمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكُنْكُمْ كُتُّمْ لَا تَعْلَمُونَ» [الروم: ٥٦].

وأصل البعث: إثارة الشيء وتوجيهه، يقال: بعثته فانبعث، ويختلف بحسب اختلاف ما علق به. ويوم البعث هو يوم الخروج من القبور^(٣).

قال ابن منظور: «والبعث أيضاً: الإحياء من الله للموتى؛ ومنه قوله تعالى: «لَمْ يَعْشَتُكُمْ بَيْنَ بَعْدِ مَوْتِكُمْ» أي: أحيسناكم. وبعث الموتى: نشرهم ليوم البعث. وببعث

(١) انظر: العين، الفراهيدى ٣/٣٢٤.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/٢٩.

(٣) انظر: المفردات، الراغب ص ١٣٢.

العظيم فيقول لهم: ﴿إِنَّ شَرَكَاءَ الَّذِينَ
كُنْتُمْ تَرْعَمُونَ﴾ [القصص: ٧٤].

والناس يومئذ ينادي بعضهم بعضاً في هذا اليوم، فینادي أصحاب الأعراف رجالاً يعرفون بسمائهم في النار، وینادي أصحاب الجنة أصحاب النار، وأصحاب النار أصحاب الجنة، وینادي أهل النار بعضهم بعضاً؛ للاستغاثة، أو يتصالحون فيه بالوليل والثبور. والملائكة تنادي الخلق ينادون إلى المحشر، وتنادي أصحاب الجنة إلى غير ذلك مما يقع في هذا اليوم من التنادي ^(٢).

٩. يوم الخلود.

ورد وصف اليوم الآخر بـ ﴿يَوْمَ الْخَلُود﴾ مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوهَا إِسْلَمًا ذَلِكَ يَوْمَ الْخَلُود﴾ [ق: ٣٤].

ووصف اليوم الآخر بـ يوم الخلود؛ لأن الناس يصيرون إلى دار الخلود، فالمؤمنون مخلدون في الجنان والكافرون مخلدون في النار، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِعِيَاتِنَا أُولَئِكَ أَعْنَبُ النَّارَ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ﴾ [آل عمران: ٣٩].

وقال: ﴿وَمَا الَّذِينَ أَيْضَنَتْ وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧] ^(٤).

وهو: «أن تخس صاحبك في معاملة بينك وبينه بضربي من الإخفاء» ^(١).

أما في سبب وصفه يوم التغابن؛ لأنه في ذلك اليوم يظهر الغبن والتفاوت بين الخلق من أربعة وجوه:

أحدها: أنه ليس من كافر إلا وله متزل وأهل في الجنة، فيرى ذلك المؤمن، فيغبن حيثيت الكافر.

والثاني: غبن أهل الجنة أهل النار.

والثالث: أنه يوم غبن المظلوم الظالم؛ لأن المظلوم كان في الدنيا مغبوناً، فصار في الآخرة غابناً.

والرابع: أنه يوم يظهر فيه غبن الكافر بتركه للإيمان، وغبن المؤمن بتقصيره في الإحسان ^(٢).

٨. يوم التناد.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَنْعَوْمِ إِلَيْهِ أَشَافَ عَلَيْكُوكَبَرَ الْتَّنَادِ﴾ [غافر: ٣٦].

والتناد: مصدر تنادي القوم، أي: نادى بعضهم بعضاً، ويوم التناد وصف لليوم الآخر، وصف بذلك؛ لكثره ما يحصل من نداء في ذلك اليوم، فالله تعالى ينادي المشركين؛ توبيخاً لهم في ذلك اليوم

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦٠٢.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي.

(٣) انظر: روح المعاني، الألوسي ص ١٢ / ٣٢٠.

(٤) انظر: القيمة الكبرى، عمر الأشقر ص ١٩.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَفِخَ فِي الصُّورٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق: ٢٠].

ووصف هذا اليوم يوم الوعيد؛ لأنَّه اليوم الذي يحصل فيه الوعيد للكافرين الذي توعدهم الله به في الدنيا، «إضافة يوم إلى الوعيد من إضافة الشيء إلى ما يقع فيه، أي: يوم حصول الوعيد الذي كانوا توعدوا به، والاقتصار على ذكر الوعيد؛ لما علمت من أنَّ المقصود الأول من هذه الآية هم المشركون»^(٢).

١٣. اليوم الموعود.

وصف اليوم الآخر بـ(اليوم الموعود) مرة واحدة في القرآن الكريم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَالْيَوْمُ الْمَوْعُودُ﴾ [البروج: ٢]. ووصف هذا اليوم بالموعد؛ لأنَّه تعالى وعد بوقوعه بعد زوال الدنيا، واجتماع الخلق فيه، ومحاسبتهم على أعمالهم كلها^(٤).

١٤. يوم الوقت المعلوم.

وصف اليوم الآخر بـ(يوم الوقت المعلوم) مرتين في القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنَظَّرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨-٣٧].

وقوله: ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٨١-٨٠].

(٣) التحرير والتغريب، ابن عاشور ٢٦/٣٠٧.

(٤) انظر: تفسير القرآن الكريم، جزء عم، ابن عثيمين ص ١٢٥.

١٠. يوم الحسرة.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ(يوم الحسرة) إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ لَا يَقْوِيُونَ﴾ [مرim: ٣٩].

ووصف هذا اليوم يوم الحسرة؛ لشدة تحسر العباد فيه وندمهم على ما فرطوا فيه من الصالحات في الدنيا. والحسرة: الغم على ما فات والنندم عليه، قال تعالى عن حال المقصري في الآخرة: ﴿بَنَحَسَرَتْ عَلَىٰ مَا فَرَطَتْ فِي جَنَّبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]^(١).

١١. يوم الخروج.

وصف اليوم الآخر بـ(يوم الخروج) مرة واحدة في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ أَصْبَحَةً يَالْعَيْذِ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُجِ﴾ [ق: ٤٢].

والخروج: مأخذ من خرج يخرج خروجاً إذا برق من مقره أو حاله. ووصف هذا اليوم يوم الخروج؛ لأنَّه يوم الخروج من القبور، فالخلق يخرجون من قبورهم للحساب؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَقْنَاثِ يَرَاعُا كُلَّهُمْ إِلَى نُصُبِّرُهُمْ﴾ [المعارج: ٤٣]^(٢).

١٢. يوم الوعيد.

لم يرد وصف اليوم الآخر بـ(يوم الوعيد) إلا مرة واحدة في القرآن الكريم،

(١) انظر: المفردات، الراغب ص ٢٢٥.

(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٧٨.

﴿جَمِيعُهُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾
[هود: ١٠٣].

﴿وَيَوْمٌ عَقِيمٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَرَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي يَوْمٍ مُّتَنَاهٍ حَقَّ تَائِبِهِمْ أَسَاطِعَةُ بَقْتَةٍ أَوْ يَائِبِهِمْ عَذَابٌ يَوْمٌ عَقِيمٌ﴾﴾ [الحج: ٥٥].

﴿وَيَوْمٌ يَكْشِفُ عَنِ سَاقِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمٌ يُكَشِّفُ عَنِ سَاقِهِ وَيَدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِعُونَ﴾﴾ [القلم: ٤٢].

﴿وَيَوْمٌ جَعَلَ الْوَلْدَانَ شَيْئًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ تَنْقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا يَعْلَمُ الْوَلْدَانَ شَيْئًا﴾﴾ [المزمول: ١٧].

﴿وَيَوْمٌ لَا يَبْعِثُ فِيهِ وَلَا خَلْهَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَنَّا لَهَا الَّذِينَ مَاءَمْنَا أَنْفَقْنَا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبْعِثُ فِيهِ وَلَا خَلْهَةَ وَلَا شَفَعَةً وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿وَيَوْمٌ لَا رَبِّ فِيهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّا إِنَّكَ جَامِعُ الْأَنْوَافِ لَيَوْمٌ لَا رَبِّ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ أَيْمَانَهُ﴾﴾ [آل عمران: ٩].

﴿وَيَوْمٌ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مَحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمٌ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مَحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ شُوُّفَةٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ يَبْيَنَهَا وَبَيْنَهَا أَمْدَأْ بَعِيدًا وَيَحْدُرُ كُلُّهُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾﴾ [آل عمران: ٦٥].

[٣٠]

ووصفت اليوم الآخر يوم الوقت المعلوم؛ لأن الله تعالى عنده علمه وحده^(١). هذه أشهر أوصاف اليوم الآخر في القرآن الكريم، وقد وردت أوصاف أخرى كثيرة تدل على أن المراد منها هو اليوم الآخر، اشتقتها العلماء من الآيات ومعانيها من ذلك:

﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمُ مِيزَانٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾﴾ [المدثر: ٩].

﴿وَيَوْمٌ عَظِيمٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَيَوْمٌ أَخَافُ إِنْ عَصَمْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ﴾﴾ [الأنعام: ١٥].

﴿وَيَوْمٌ كَبِيرٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيَوْمٌ أَسْتَغْفِرُهُ رَبِّكُمْ ثُمَّ تُوَلَّهُ إِنَّهُ يُمْنَعُكُمْ مَنْتَعًا حَسَنَتْ إِنَّ أَجْلَ مُسَيَّرٍ وَتَوَلَّتْ كُلُّ ذِي فَضْلَةٍ وَإِنَّ تُولَّوا فَإِنَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٌ كَبِيرٌ﴾﴾ [هود: ٣].

﴿وَيَوْمٌ أَلِيمٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا خَلَافَ الْأَخْرَابُ مِنْ يَتَّهِمُهُ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمٌ أَلِيمٌ﴾﴾ [الزخرف: ٦٥].

﴿وَيَوْمٌ عَبُوسٌ قَمْطَرِيرٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾﴾ [الإنسان: ١٠].

﴿وَيَوْمٌ مَشْهُودٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١٤١ / ١٩.

- ويوم يأتي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ
لَا تَكَلَّمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سَقِي
وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].
- ويومهم الذي في قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ
يَمْوَضُوا وَيَلْعَبُوا حَقَّ يَكْثُرُوا يَوْمَ الَّذِي
يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].
- ويوم يحمى عليها في نار جهنم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارٍ
جَهَنَّمْ فَتَكُوْفُ بِهَا جِهَاثُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
وَظَهُورُهُمْ هَذَا مَا كَسَرْتُمْ لِأَنْفُسِكُوْ
فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْرِيْبُونَ﴾ [التوبه: ٣٥].
- ويوم يلقونه في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُرُوهُمْ
يَقْنَافًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْهُمْ إِنَّمَا
أَخْلَقُوا اللَّهَ مَا مَأْتَاهُ وَعَنْهُ مَا كَانُوا
يَكْذِبُونَ﴾ [التوبه: ٧٧].
- ويوم مجموع له الناس في قوله تعالى:
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ
ذَلِكَ يَوْمَ تَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ
مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].
- إلى غير ذلك من الأوصاف التي جلت معالم هذا اليوم المهول ورسمت معامله، واليوم الآخر لما عظم أمره وكثرت أهواله، سماه الله تعالى في كتابه بأسماء عديدة، ووصفه بأوصاف كثيرة، وهذا شائع في كلام العرب، فهم كلما عظم شأن الشيء عندهم تعدد أسماؤه وصفاته، فالشيء الحقير ما له إلا اسم واحد فقط، لكن الشيء العظيم
- ويوم تبيض وجوه وتسود وجوه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبَيَّنُ وُجُوهُ وَتَسُودُ
وُجُوهٌ فَمَاً الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ
أَكْفَرُهُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦].
- ويوم يجمع الله الرسل في قوله تعالى:
﴿يَوْمَ يَجْمِعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أَجْبَرْتُمْ
قَاتَلُوا لَا عَلَّمْ لَمَّا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْغَيْبَوْبِ﴾
[المائدة: ١٠٩].
- ويوم ينفع الصادقين صدقهم في قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ
صَدَقُهُمْ لَمَّا حَجَّتْ بَجْرَى مِنْ عَيْنِهَا الْأَنْهَرُ
خَلَقَنِ فِيهَا أَبْدًا رَبَّنِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضَوْعَاهُ دَلَكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].
- ويوم ينادي شركائي في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادِيَا شَرِكَائِيَ فِي قَوْلِهِ
الَّذِينَ رَعَيْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِبُوْهُمْ
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْرِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].
- ويوم ينفح في الصور في قوله تعالى:
﴿يَوْمَ يَنْفَعُ فِي الصُّورِ وَتَخْسِرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَ إِذْ
رُزِقَا﴾ [طه: ١٠٢].
- ويومكم هذا في قوله تعالى: ﴿يَنْعَشِرَ
الْجِنُّ وَالْإِنْسَانُ أَنَّ رَبِّكُمْ رَسُّلٌ مَنْكُمْ
يَعْصُوْنَ عَلَيْكُمْ مَا يَعْصِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ
يَوْمِكُمْ هَذَا فَالْوَاحِدُ شَهِدَنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَعَنْهُمْ
لَهُيَّةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا
كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

الأدلة القرآنية على البعث بعد الموت

البعث كما سبق ذكره هو إحياء الأجساد وعودة الأرواح إليها، بعد نفخة الصور الثانية، فيقوم الناس لرب العالمين، حفاةً عراةً غرلاً، كما قال تعالى: ﴿وَعَرِضْوَا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفَّا لَقَدْ جَشْمُوْنَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعْمَتُمْ أَنْ تَجْعَلَ لِكُمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٤٨].

والبعث ركن ثابت في الإيمان باليوم الآخر، وقد أثبته القرآن الكريم في كثير من المواقـع، واستدلـل على وقـوعـه وتحقـقـه وعالـجه بشـتـى الطرق والأـسـالـيـبـ، وأـثـبـته بالـأـدـلـةـ الـقـلـيلـةـ عن طـرـيقـ آيـاتـهـ التـيـ توـجـبـ الإـيمـانـ بـهـ، والـأـدـلـةـ الـعـقـلـيـةـ منـ خـالـلـ الاستـدـلـالـ بـآيـاتـ اللـهـ تـعـالـىـ الـكـوـنـيـةـ فـيـ الـأـرـضـ عـلـىـ إـثـبـاتـ الـبـعـثـ بـعـدـ الـمـوـتـ، وـجـاءـ تـرـكـيزـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ عـلـىـ هـذـهـ الـقـضـيـةـ؛ لأنـ كـفـارـ مـكـةـ كـانـواـ يـنـكـرـونـهـاـ، وـيـعـتـقـدـونـ أنـ لاـ حـيـاةـ بـعـدـ الـمـوـتـ كـمـاـ حـكـىـ عـنـهـ الـقـرـآنـ: ﴿وَقَالُوا مَا هـيـ إـلـاـ حـيـاتـ الـذـيـ نـمـوتـ وـنـيـمـ وـمـاـ يـلـكـاـ إـلـاـ الـذـفـرـ﴾ [الجـاثـيـةـ: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿الَّا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ إِلَّا إِنَّهُمْ يَكْلُلُونَ شَقَّ وَمُحِيطًا﴾ [فصلت: ٥٤].

واستدلـواـ بـعـدـ الـبـعـثـ بـعـدـ الـمـوـتـ وـاسـتـبعـدـوهـ بـعـدـ حدـوثـ شـيـءـ لـأـبـاهـمـ كـمـاـ حـكـىـ عـنـهـ الـقـرـآنـ منـ ذـلـكـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:

لهـ أـسـماءـ كـثـيرـةـ، فـ(ـالـسـيفـ)ـ لـمـ اـعـظـمـ عـنـهـمـ مـوـضـعـهـ وـتـأـكـدـ نـفعـهـ لـدـيـهـمـ وـمـوـقـعـهـ جـمـعـواـ لهـ خـمـسـمـائـةـ اـسـمـ مـثـلـ الـمـهـنـدـ، وـالـصـارـمـ، وـالـمـسـلـولـ، وـالـبـتـارـ وـغـيـرـهـاـ، وـ(ـالـأـسـدـ)ـ كـذـلـكـ جـمـعـواـ لهـ أـسـماءـ كـثـيرـةـ مـثـلـ: لـيـثـ، وـغـضـنـفـرـ؛ لـأـنـهـ أـسـدـ^(١).

(١) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص ٥٤.

محالة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً، وعلى النحو الآتي:

أولاً: الأدلة العقلية:

أورد القرآن الكريم أدلة عقلية كثيرة ثبت البعث والحساب، وسلك في ذلك لإثباتها مسالك مختلفة في طريقة العرض والاستدلال، ومن هذه الأدلة العقلية:

١. قدرة الله المحيطة بكل شيء.

من الأدلة العقلية التي ساقها القرآن الكريم في آياته لإثبات عقيدة البعث بعد الموت هي قدرة الله المحيطة بكل شيء، فالله تعالى خالق الكون كله ومنه الإنسان، وهو قادر على إحيائه بعد موته وهو أهون عليه، ولقد جاءت آيات كثيرة تدل على ذلك يقتربن فيها الرد على منكري البعث بالذكر بقدرة الله تعالى على ذلك منها تعرضها لشك الكافرين بالبعث والحساب، فترد عليهم، وتثبت من خلال الطبيعة كتاب الله المنظور تعالى صدق الوعد الذي يكتذبونه، منوعة في عرض الأدلة تنويعاً عجيباً وصولاً إلى إثبات البعث ودفع شبه منكريه.

والله تعالى له القدرة المطلقة، فهو سبحانه على كل شيء قادر، وما دامت له القدرة المطلقة تعالى، فإن مقتضى ذلك أن يقدر على إحياء الموتى، فضرب لهم سبحانه الأمثلة بأمور مشاهدة من الحياة

﴿بَلْ أَذْرَكُ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَيْءٍ مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْذَاكُمْ شَرِّيَا وَمَا يَأْتُونَا أَبْيَانًا لِّمُخْرَجِهِنَّ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَمَا يَأْتُونَا مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيعُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النمل: ٦٨-٦٦].

فرد عليهم القرآن الكريم ظنهم الفاسد وشكهم بالبعث والحساب بقوله تعالى:

﴿رَعَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يَعْتَوَّلُّنَا بَلْ وَرَقَ لِتَعْنَتُمُ الْنَّبَيُّونَ يَعْمَلُونَ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ سَيِّرٌ ﴾ [الغافر: ٧].

وتوعدهم بالعذاب الأليم مثل قوله تعالى: ﴿وَخَسِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَيْنًا وَيَكِنَا وَصَنَا مَا وَلَهُمْ جَهَنَّمَ كَلَّمَا حَاجَتْ زِدَنَهُمْ سَعِيرًا ﴾ [١٧] ذلك جزاؤهم لأنهم كفروا يغایلُوكُمْ وَقَاتُوكُمْ إِذَا كَانُوكُمْ عَظِيمًا وَرَفَقْتُمُوا نَّا لِمَبْعَدِهِنَّ حَلَقْتُمْ جَدِيدًا ﴿١٨﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ لَبَّاً لَّا رَبَّ فِيهِ فَإِنَّ الظَّالِمِينَ إِلَّا كُفُورُهُ ﴾ [الإسراء: ٩٧-٩٩].

وحاججهم في كثير من المواقع، وأثبت البعث والحساب بالأدلة العقلية -كما سيأتي بيانها بالتفصيل- بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَنِي السِّجْلِ الْمَكْعُوبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقِنَا بِعِيْدَهُ وَعَدَّا عَيْنَانِيَا كَمَا فَتَعَلَّبَنِ ﴾ [الأనبیاء: ١٠٤].

وستتناول فيما يأتي معالجات القرآن الكريم لشبهات منكري البعث، وإبراده الأدلة العقلية والنقلية على إثباته ووقعه لا

ومن الآيات التي دلت على قدرته تعالى في إحياء الموتى ويعنهم وجاججت منكري البعث قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمْ يَجْمُعُوهُنَّ إِلَى يَوْمٍ مَعْلُومٍ فَمِنْ أَكْثَرِهِمْ أَيُّهَا الْفَلَّاْلُونَ الْمُكَذِّبُونَ لَا يَكُونُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ رَوْمَرٍ فَإِنَّهُمْ مِنْهَا الْبَطُّونَ فَسَدِّرُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَسِيمِ فَسَدِّرُونَ شَرَبَ الْمَيْمَنِ هَذَا تَرْلُمَ يَوْمَ الْقِيَمِ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تَصْدِقُونَ أَفَرَأَيْتَمِنَّا ثُمَّ نَحْنُ أَنْشَأْنَا خَلْقَنَا هَمْ نَحْنُ الْخَلَقُونَ نَحْنُ قَدْرَنَا يَكُونُ الْمَوْتُ وَمَا نَحْنُ بِمَسْتُوْنَ أَنْ يُبْدِلَ أَمْثَالَكُمْ وَنَتْسِكُّمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ وَلَقَدْ عَاهَمْتَ النَّشَاءَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتَمِنَّا تَخْرُوبُونَ أَنْشَأْنَا تَرْغُونَ هَمْ نَحْنُ الْأَرْغُونَ لَوْ نَشَاءَ لَجَعَلْنَا حُطَنَّا فَظَلَّتْ تَفَكَّهُونَ إِنَّا لَعَزَّمُونَ بِلَنَحْنُ سَمَوْمُونَ أَفَرَأَيْتَمِنَّ الْمَاءَ الَّذِي تَسْرِيْونَ أَنْشَأْنَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ الْأَرْضِ نَحْنُ الْمَنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءَ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشَكَّرُونَ أَفَرَأَيْتَمِنَّ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ مَأْشِنَاهُنَا شَجَرَهُنَا هَمْ نَحْنُ الْمَنْشِعُونَ جَعَلْنَاهُنَا تَذَكَّرَةً وَمَنْتَعَالْمَعْوِينَ فَسَيِّحَ يَاسِرَ رَبِّكَ الْعَظِيْمِ﴾ [الواقعة: ٤٩-٧٤].

وقد تضمنت هذه الآيات أربعة أدلة حسية ومشاهدة من واقع الإنسان وحياته على جواز البعث وإمكانه: الأولى: ماء الرجل (المني) في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَمِنَّا ثُمَّ﴾، والثانية: إنبات النبات في

.٦٨، ص ١٩٨١ / ١٤٠١

هي نظير بعث الأجساد وحشرها، من ذلك قوله تعالى: ﴿أَيْعَسَبُ الْأَنْسُنُ أَنْ يُرَكِّسَنِي﴾ [آل عمران: ٢٨] ثم كان علة فحاق مسوئ [٢٧] بجعل منه التوجّيّن الذّكر والأنثى [٢٨] أليس ذلك يقتدِر على أن يحيي الْلَّوْقَ﴾ [القيامة: ٣٦-٤٠].

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِنَّ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ لَنَا مَنْخِسِفٌ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطُ عَلَيْهِمْ كَسَافَاتٍ السَّمَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيْلَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

ففي الآية «دلالة واضحة على قدرة الله، فكيف يستبعد عليه إعادة تلك الأجسام الضئيفة بعد تفرقها، وهو القادر على خلق هذه الآيات العظيمة، من السماء والأرض، ذلك هو دليل البعث؛ لأنَّه يدلُّ على كمال القدرة، ومن المقدور عليه إعادة خلق الإنسان وإيجاده مرة أخرى، وقد قرر هذا الدليل بالتهديد حيث قال: ﴿إِنْ لَنَا مَنْخِسِفٌ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسْقِطُ عَلَيْهِمْ كَسَافَاتٍ السَّمَاءَ﴾.

ثم بين تعالى أن المتنفع بتلك الآيات كل من يرجع إلى ربه، ويتوّب إليه، لا من يتمادي في عناده وتعصبه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِيْلَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾^(١).

(١) مسلك القرآن الكريم في إثبات البعث، على الفقيهي، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، السنة الثالثة عشر، العدد ٥٠، ٥١، ربى الآخر، رمضان

الناس بأعينهم، والتي فيها دلالة على البعث يأتي قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾، ليوضح الصورة التي كانوا ينكرونها ويقربها إليهم عن طريق التشبيه، إذ شبه سبحانه إحياء الإنسان وبعثه بعد موته، بإحياء الأرض وإنباتها بالغيث بعد طول اليأس والجدب، وهذا يدل على كمال قدرة الله تعالى ^(١).

وخروج الإنسان من قبره للبعث يكون بنزول الماء من السماء أيضاً، كما جاء في الحديث الصحيح: (ثم ينزل الله من السماء ماءً فينبتون كما ينبت البقل)، ليس من الإنسان شيء إلا يلي إلا عظماً واحداً، وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيمة ^(٢).

ومن الأدلة على إمكانية البعث بيان قدرة الله تعالى على إخراج الأشياء من أضدادها. فإذا كانت الحياة ضد الموت، والبعث ضد الوفاة، فإن الله تعالى الذي يخرج الضد من ضده قادر على إحداثه، كما ورد في قوله تعالى: ﴿تُولِّجُ أَيْنَدِلِ فِي النَّهَارِ وَتُولِّجُ النَّهَارَ فِي الْأَيَّلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُغْنِي الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْفَعُ مَنْ شَاءَ بِغَيْرِ حَسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧].

فالله هو الذي يخرج الإنسان الحي من النطفة، ويخرج النطفة الميتة من الإنسان

(١) انظر: الإبداع البياني، الصابوني ص ٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، البخاري، كتاب التفسير، باب (يوم ينفع في الصور)، رقم ٤٩٣٥، ٤٩٥/٦.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَبِّيْمَ مَا تَحْرُبُونَ﴾ ^(٣)، مائةٌ تَرْزَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْتَّرْزَعُونَ ^(٤) لَوْ شَاءَ لَجَعَلْنَاهُ حَطَنَمَا فَطَلَنَتْ قَنَكَمُونَ ^(٥) إِنَّا لَمَعْرُومُونَ ^(٦) بِلَ نَحْنُ مَعْرُومُونَ ^(٧)، والثالث: إنزال المطر في قوله تعالى: ﴿أَفَرَبِّيْمَ الْمَاءَ الَّذِي تَشَرِّبُونَ﴾ ^(٨) مائةٌ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَرْزَنَامَ نَحْنُ الْمَنْزُلُونَ ^(٩) وسيأتي بيان هذه الأدلة.

ومن أجمل الآيات التي بينت قدرة الله على البعث وحاججت منكريه قوله تعالى: ﴿فَوَالنَّرْمَانَ الْمَجِيدِ﴾ ^(١) بِلَ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ فَنَهَرُوا فَقَالَ الْكُفَّارُونَ هَذَا شَيْءٌ عَيْنِيْ ^(٢) أَوْمَادًا وَمَنَّا وَكَانُوا بِإِلَّا ذَلِكَ رَجُمٌ بَعِيدٌ ^(٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْفَعُ الْأَرْضُ يَنْهِمْ وَعَنْدَنَا كِتَابٌ حَفِظْ ^(٤) بِلَ كَذَبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ ^(٥) أَفَلَا يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوَقَعَهُ كَفَرُ بَنِيَّنَاهَا وَرَبِيَّنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوحٍ ^(٦) وَالْأَرْضَ مَدَّنَاهَا وَلَفَقَنَا فِيهَا رَوَسِيَّ وَأَبْسَنَاهَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَرْعٍ ^(٧) بَهِيجٍ ^(٨) تَبَصِّرَهُ وَذَكَرَهُ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنْبِتٍ ^(٩) وَنَزَّلَنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَرِّكًا فَأَنْبَتَنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ^(١٠) وَالنَّخْلَ بِاسْقَنَتِ لَهَا طَلْعَنَصِيدٍ ^(١١) رِزْقًا لِلْعِيَادَ وَاحْيَنَا بِهِ بَلَدَةَ مَيَّتَنَا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ^(١٢) كَذَبَ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ فُرُوحٌ وَأَحْنَبَ الرَّئِسَ وَنَمُودُ ^(١٣) وَعَادٌ وَفَرْعَوْنُ وَلَوْطٌ ^(١٤) وَأَحْنَبَ الْأَنْتَكَ وَقَوْمٌ بَيْعٌ كُلُّ كَذَبَ الرَّسُولَ حَقٌّ وَعَدَ أَفَعَيْنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ بِلَ هُرْ فِي لَبِسِ مِنْ حَلْقٍ جَدِيدٍ ^(١٥) [ق: ١-١٥].

وبعد سوق كل هذه الأدلة التي يراها كُلُّ

الإلهية، ولكنه سبحانه يضرب الأمثال لنا بما نعقله وندركه، وقد ورد هذا الاستدلال في آيات كثيرة من القرآن الكريم تبين في مجلملها أن خلقهما أعظم من خلق الإنسان.

ومن الآيات الدالة قوله تعالى: ﴿أَولَئِسْ
الَّذِي حَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ
يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلْ وَهُوَ الْخَلَقُ الْعَلِيمُ﴾ [إِنَّمَا
أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ
﴿فَسَبِّحْنَاهُ الَّذِي يَدْرِي مَلْكَوْتَ كُلِّ شَفْوٍ وَالْيَوْمِ
تُرْجَعُونَ﴾] [يس: ٨١-٨٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَكِّمُونَ
فِي عَالَمَتِ اللَّهِ يَعْلَمُ سُلْطَنِي أَتَهُمْ إِنْ فِي
صُدُورِهِمْ إِلَّا كَيْرَ مَا هُمْ يَتَلَفِّهُ
فَأَسْتَعِدُ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ
﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ
مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ﴾] [غافر: ٥٦-٥٧].

فاستدلّ ربنا تعالى باقتداره على خلق السموات على اقتداره على إعادة الأرواح إلى الأجساد عند البعث بعد الموت؛ لأن خلق الإنسان أقل شأناً من خلق السموات والأرض، ومن ثم فإن الله تعالى القادر على خلق السموات والأرض لا يعجزه خلق الإنسان - الذي هو جزء من هذا الكون - وإعادته.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يدمج الله تعالى الاستدلال على البعث بالتحدي

الحي، وكذلك الأنعام والبهائم، فالنطفة ميتة ثم ينشئ الله منها إنساناً حياً، ومن الإنسان الحي تخرج النطفة الميتة، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالَّذِي
وَالنَّوْتَرُ يُخْرِجُ الْمَتَّ مِنَ الْمَيْتِ وَمُخْرِجُ الْمَيْتِ مِنَ
الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَالَّذِي تُوقَنُونَ﴾ [فَالَّذِي أَصْبَحَ
وَجَعَلَ أَيْلَلَ سَكَّاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا
ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾] [الأنعام: ٩٤-٩٥].

٢. القادر على الأكبر قادر على الأصغر.
من الأساليب القرآنية لإثبات البعث والحياة بعد الموت الاستدلال بأن من خلق الأعلى والأكبر والأعظم، فقدرته على خلق الأدنى والأصغر أولى، والله تعالى من جملة خلقه ما هو أعظم من خلق الناس، ومن ذلك لفت النظر إلى خلق السموات وما فيها من الشمس والقمر وسائر الكواكب والأرض وما فيها من جبال رواسٍ شامخات وأنهار وسهول وهضاب وغيرها، على ما اشتملت عليه من العظمة التي تعلو على خلق الإنسان أضعافاً مضاعفة.

فكيف يقال للذي خلق هذا الخلق العظيم بأنه لا يستطيع أن يخلق ما دونها ويعيده بعد موته؟

وهذا في حق الخلق، أما في حق الله الخالق فالكل في قدرته، سواء كبر المخلوق أم صغر، فخلق السموات والأرض كخلق أصغر شيء، فالكل سواء في ميزان القدرة

أولى بالإمكان والقدرة من ذلك»^(١).

٣. القادر على البدء قادر على الإعادة.
من أدلة القرآن الكريم في الاستدلال على البعث بعد الموت استدلاله على وقوع وإمكان النشأة الثانية - البعث بعد الموت - بالنشأة الأولى - الخلق الأول.

وهذا استدلال جاء في كثير من آيات القرآن الكريم، استدلال يلزم منكر البعث الحجة بالدليل القاطع، فهو يغفل عن أن خلقه على هذا النحو أعظم دليل، فهو يرى بأم عينيه كل يوم النشأة الأولى للإنسان والحيوان، ومن كانت هذه حاله في الأولى لن يصعب إرجاعه في الثانية؛ لأن الذي خلق من العدم قادر غير عاجز تعالى على أن يعيده وهو أهون عليه، لكن فطرة هؤلاء المنكرين فسدت؛ لکفرهم وعنادهم، فغابت عنهم الحقائق الثوابت: **﴿هَلْ أَنْتَ عَلَى الْإِنْسَنِ حِينَ مِنَ الظَّهَرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾** [إنا خلقنا الإنسَنَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْسَاجَ بَنَاتِيَهُ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا] [الإنسان: ٢-١].

ومن الآيات الكريمة التي ذكرت الاستدلال على النشأة الأخيرة بالنشأة الأولى، وتذكير منكري البعث المستبعدين له بهذه الحقيقة الثابتة التي لا يستطيع أحد إنكارها قوله تعالى: **﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِعُونَ سَبِيلًا﴾** [١٦] و قالوا

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٣/٢٩٩.

وذلك في قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا أَشْدَدُ خَلْقَنَا أَنَّهُمْ بِنَهَا رَفِعَ سَنَكَاهَا فَسَوَّهَا وَأَغْطَشَ تَابَاهَا وَأَخْرَجَ حَسَنَهَا وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَنَهَا أَخْرَجَ رِبَّاهَا مَاءَهَا وَمَرَعَهَا وَلَمْ يَجِدْ أَرْسَنَهَا﴾** [النازعات: ٢٧-٣٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بعد أن أورد عدداً من الآيات حول هذا الاستدلال: «فالله تعالى لم يكتف في بيان إمكان المعاد بهذا؛ إذ يمكن أن يكون الشيء ممتنعاً ولو لغيره، وإن لم يعلم الذهن امتناعه؛ بخلاف الإمكان الخارجي. فإنه إذا علم بطل أن يكون ممتنعاً، والإنسان يعلم الإمكان الخارجي؛ تارةً بعلمه بوجود الشيء، وتارةً بعلمه بوجود نظيره وتارةً بعلمه بوجود ما هو أبلغ منه، فإن وجود الشيء دليل على أن ما هو دونه أولى بالإمكان منه.

ثم إنه إذا بين كون الشيء ممكناً فلا بد من بيان قدرة الرب عليه، وإلا ف مجرد العلم بإمكانه لا يكفي في إمكان وقوعه إن لم تعلم قدرة الرب على ذلك. فيبين سبحانه هذا كله بمثل قوله: **﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَبَّ فِيهِ قَائِمٌ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورُكُمْ﴾** [الإسراء: ٩٩].

فإنه من المعلوم بيداه العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم والقدرة عليه أبلغ، وأن هذا الأيسر

من المنافاة بين العظمية وبين قبول الحياة،
وذلك أن العظم قد كان جزءاً من بدن
الحي، أما الحجارة وال الحديد فما كانا البتة
موصوفين بالحياة، فبتقدير أن تصير أبدان
الناس موصوفة بصفة الحجرية والحديدية
بعد الموت، فإن الله تعالى يعيد الحياة إليها
و يجعلها حيّاً عاقلاً كما كان» ^(٢).

ولكن لا زال الجحود والشكُّ والريبة
تجوّل في عقول المنكرين للبعث ومخيلتهم،
كما ذكر الله عنهم بقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ
يُعِيدُنَا فَلِلَّٰهِ فَطْرَكُمْ أَوْلَىٰ مَرْءَةٍ فَسَيَقُولُونَ
إِلَيْكُمْ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَنْ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ
يَكُونَ فِيهِمَا﴾.

فالوجود دليل على العدم؛ إذ لو لا ذلك
لما كان للشيء وجود في الخارج.

وفي موضع آخر من القرآن الكريم نجد تفصيلاً في الاستدلال على البعث بالخلق الأول للإنسان، فأبونا آدم خلقه الله من تراب، فال قادر على جعل التراب بشراً سوياً، لا يعجزه أن يعيده بشراً سوياً مرة أخرى بعد موته، ويدرك أيضاً بخلقنا نحن - ذرية آدم - فإنه خلقنا من سلالة من ماء مهين، تحولت هذا الماء فأصبح نطفة، ثم صارت النطفة علقة، ثم تحولت إلى مضغة. إلى أن نفح فيها الروح، وجعلها إنساناً سوياً.

فال قادر على هذا الخلق المشاهد

أَوْذَا كُنَّا عِظَلَمًا وَرَفَنَا أَعْلَمَا لَمَعْوُنَ حَلَّنَا جَدِيدًا
٤٩ قُلْ كُوْنُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ حَلَقًا
مَنَا يَكْتَبُ فِي صَدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا
قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوْلَ مَرَّةً فَسَيَتَضَعُونَ إِلَيْكُمْ
رَهْوَدْهُمْ وَيَقُولُونَ مَنْ هُوَ قُلْ سَعَى أَنْ يَكُونَ
قَرِيبًا ۵٠ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَحِيْبُونَ بِخَمْدُوهُمْ
وَتَمْثُلُونَ إِنْ لِيَتَمَّ إِلَّا قَلِيلًا ۝ [الإسراء: ٤٨-٥٢].

فالآيات تعرض لسؤال منكري البعث المتكرر دوماً (من يعيذنا؟)، (من يعثنا؟) وهذا غاية الإنكار منهم، كما قال الألوسي رحمة الله: «فيه من الدلالة على غلوتهم في الكفر وتماديهم في الضلال ما لا مزيد عليه»^(١).

فجاءت الآيات بالجواب البليغ المفخم
بأن قل لهم يا محمد -تحقيقاً للحق،
ولإزاحة للاستبعاد، وإرشاداً لهم إلى طريقة
الاستدلال: إن الذي يعيدهم ويعثكم هو
الله القادر العظيم الذي فطركم وأنشأكم في
النسمة الأولى، من غير مثال سابق يحتذيه
ولا أسلوبٌ يتحيه، وكتتم تراباً ما شم
رائحة الحياة، أليس الذي يقدر على ذلك
بقدار على أن يعيد العظام البالية إلى حالتها
المعهودة؟! بل إنه على كل شيء قادر^(٢).

قال الرازى رحمة الله: «إِنَّ الْمُنَافَافَةَ بَيْنَ
الْحَجَرِيَّةِ وَالْحَدِيدِيَّةِ، وَبَيْنَ قَبْوِ الْحَيَاةِ أَشَدُ

٨٧ / روح المعانٰجی

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود . ١٧٧/٥

والعلوم والإرادات والصناعات؟! كل ذلك من نطفة ماء! فلو أنصف العبد ربه لاكتفى بتفكيره في نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته»^(١).

وهذه الآيات لها دلالة عقلية علىبعث: فهي نقلة ضخمة بعيدة الأغوار والأماد، تشهد بالقدرة التي لا يعجزها البعث، وأن إنشاء الإنسان من التراب، وتطور الجنين في مراحل حياته، وابناعث الحياة من الأرض بعد الهمود، كل ذلك متعلق بأن الله هو الحق، فهو من السنن المضطربة التي تنشأ من أن خالقها هو الحق الذي لا تختل سنته ولا تختلف، وأن اتجاه الحياة في هذه الأطوار؛ ليدل على الإرادة التي تدفعها وتنسق خططاها وترتب مراحلها.

فهناك ارتباط وثيق بين أن الله هو الحق، وبين هذا الاضطرار والثبات، والاتجاه الذي لا يحيد، وأن إحياء الموتى هو إعادة للحياة، والذي أنشأ الحياة الأولى هو الذي ينشئها للمرة الأخيرة **«وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مِنْ فِي الْقُبورِ»**؛ ليلاقووا ما يستحقونه من جزاء، فهذا البعث تقتضيه حكمـةـالـخـلـقـوـالتـدـبـيرـ، وإنـهـهـذـهـاـالـأـطـوارـتـيـيـمـرـبـعـبـهاـجـنـينـ،ـثـمـ يـمـرـبـعـبـهاـطـفـلـعـدـأـنـيـرـيـنـورـ؛ـلـتـشـيـرـإـلـىـأـنـالـإـرـادـةـالـمـدـبـرـةـلـهـذـهـاـالـأـطـوارـسـتـدـفـعـ

المعلوم، قادر على إعادة، وإحياء الموتى.

قال تعالى: **﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَبِّ يَوْمَ الْبَعْثَ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ قَبْرَابِثُمْ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقَةٍ وَغَيْرُ مُخْلَقَةٍ لِتُبَيَّنَ لَكُمْ وَتَفَرُّ في الْأَرْجَامِ مَا نَشَاءُ إِنْ أَجَلِي شَيْئًا ثُمَّ تُخْرِجُمُمْ طَفْلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرْدَى إِنْ أَرْدَلَ الْعُمُرَ لِمَكِيلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمِ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَرْزَلَنَا عَلَيْهَا الْأَرْضَ أَهْبَطَتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَلِكَ بِإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَإِنَّهُ يَتَحَقَّقُ الْمَوْقَعُ وَإِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّ السَّاعَةَ مَاتِيَّةٌ لَا رَبَّ فِيهَا وَإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ مِنْ فِي الْقُبورِ﴾ [الحج: ٧-٥].**

وهذه الآيات تعطي تفصيلاً للمراحل التي يمر بها خلق الإنسان، فقد قابل الله هذه المراحل بعدة دلالات على قدرته سبحانه على البعث.

يقول الإمام ابن القيم رحمـهـالـلهـ: «أـيـ إنـهـمـالـتـبـسـعـلـيـهـمـإـعـادـةـالـخـلـقـخـلـقـجـدـيـدـاـ،ـثـمـ نـبـهـمـعـلـىـمـاـهـوـمـأـعـظـمـآـيـاتـقـدـرـتـهـ وـشـواـهـدـرـبـوـيـتـهـوـأـدـلـةـالـمـعـادـ،ـوـهـوـخـلـقـالـإـنـسـانـ؛ـفـإـنـهـمـأـعـظـمـالـأـدـلـةـعـلـىـالـتـوـحـيدـ وـالـمـعـادـ،ـوـأـيـدـلـيـلـأـوـضـحـمـنـتـرـكـيـبـهـذـهـ الصـورـةـالـأـدـمـيـةـبـأـعـصـائـهـوـقـوـاـهـاـوـصـفـاتـهـ،ـوـمـاـفـيـهـاـمـنـالـلـحـمـوـالـعـظـمـوـالـعـرـوقـ وـالـأـعـصـابـوـالـرـيـاطـاتـوـالـمـنـافـذـوـالـأـلـاتـ

^(١) الفوائد، ابن القيم ص ٩.

رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده عظمٌ رميمٌ، وهو يفتته ويدرره في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال: (نعم، يحييك الله تعالى ثم يبعثك، ثم يحضرك إلى النار).

ونزلت هذه الآيات من آخر يس: **(أَوَلَئِنَّ إِلَانْسَنَ أَتَأَخْلَقْتَهُ مِنْ نُطْفَةٍ)**، إلى آخرهن عن ابن عباس، (أن العاصي بن وائلٍ أخذ عظيماً من البطحاء ففته بيده، ثم قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أبحيي الله هذا بعد ما أرى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم، يحييك الله ثم يحييك)، ثم يدخلوك جهنم). قال: ونزلت الآيات من آخر يس) ^(٢).

وقد أمر الله عباده بالسير في الأرض، والنظر في كيفية بده الخلق؛ ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة، فقال تعالى: **(وَهُوَ الَّذِي يَبْدُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهُونُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمُثُلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)** ^(١) ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من مالك أيمتلكم من شركاء في ما رزقتم من فائدة فيه سوء تناهونهم كيختبركم أنفسكم كذلك فت disillusion الآيات لغير يعقلون ^(٢) [الروم: ٢٧-٢٨].

وهذه الآيات مثل ضربه الله تعالى لعباده؛ ليدلّ على «أن الإعادة أهون عليه

بالإنسان إلى حيث يبلغ كماله الممكن في دار الكمال؛ إذ إن الإنسان لا يبلغ كماله في حياة الأرض، فهو يقف ثم يتراجع **(لَكَيْلًا يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عِلْمِ شَيْئًا)**.

فلا بد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان، فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مزدوجة، فهي تدلّ على البعث من ناحية أنَّ القادر على الإنسـاء قادر على الإـادة، وهي تدلّ على البعث؛ لأنَّ الإـادة المـبدرة تـكـمل تـطـوير الإنسان في الدار الآخرة، وهـكـذا تـلـقـي نـوـامـيسـ الـخـلـقـ والإـادـةـ وـنـوـامـيسـ الـحـيـاةـ وـالـبـعـثـ، وـنـوـامـيسـ الـحـسـابـ وـالـجـزـاءـ، تـشـهـدـ كـلـهاـ بـوـجـودـ الـخـالـقـ الـمـدـبـرـ الـقـادـرـ، الـذـيـ لـيـسـ فـيـ وـجـودـ جـدـالـ) ^(١).

ومن الآيات أيضًا قوله تعالى: **(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسَى خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُنْحِي الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ)** ^(٣) قُلْ يُنْحِيْهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوْلَ مَرَّةً وَهُوَ يُكْلِلُ خَلْقَهُ عَلَيْهِ) [يس: ٧٨-٧٩].

فالله تعالى يعلم أين ذهب العظام فيسائر أقطار الأرض وأرجائها وتفرقها وتمزقها، ويعلم من يعيد خلق الإنسان كما بدأه من أصغر جزء في الإنسان وهو: عجب الذنب. قال مجاهد، وعكرمة، وعروة بن الزبير، والسدسي، وقتادة في سبب نزول هذه الآيات الكريمات: (جاء أبي بن خلف إلى

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٩٤ / ٦.

(١) انظر: في ظلال القرآن ٤ / ٢٤٠٩.

البعث.

إنَّ تقلبُ الْخَلْقِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ، ثُمَّ الْمَوْتُ، ثُمَّ الْحَيَاةُ الْأَبْدِيَّةُ الْخَالِدَةُ أَعْظَمُ دَلِيلٍ عَلَى قُدرَةِ اللَّهِ الَّتِي تَجْعَلُ النُّفُوسَ تَخْضُعُ لِعَظَمَتِهِ وَسُلْطَانَهُ فَكَيْفَ تَكُفُّرُونَ بِاللَّهِ وَكَيْنُوكُمْ أَمْوَاتٌ فَأَغْيَبْتُمْ ثُمَّ يُبَيِّسْتُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾

[البقرة: ٢٨].

وفي كثير من المواقف من القرآن الكريم يبين ربنا الرحمن تعالى أن من تمام مستحقات الوهبيه وربويته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال، ولذا فإنه يحيي ويميت، ويخلق ويفني، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي، ومن كانت هذه حاله فهو قادر على رد الأرواح إلى الأجساد ويعتها في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَنَّثُوا فِرَدَى كَمَا حَلَقْتُمُ أُولَئِكُمْ وَرَكِّمْ مَا حَوَلَنَّكُمْ وَرَأَمْ ظَهُورَكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شَفَعَاءَ كُمُّ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيهِمْ شُرَكٌ وَلَقَدْ تَقْطَعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَرْعَمُونَ ﴾١٦﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِّقُ الْمُلْتَقِيْ وَالْمُوْتَقِيْ يَحْرُجُ الْمَتَّيْ مِنَ الْمَيْتِ وَيُخْرِجُ الْمَيْتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَإِنَّ تُوقَنُوْنَ ﴾١٧﴿ فَإِنَّ الْإِصْبَاحَ وَجَعَلَ أَيْلَالَ سَكَّاً وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾١٨﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النَّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلْمَكُتُ الْأَرْضِ وَالْبَحْرِ فَدَفَعْنَا الْأَيْنَتَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾١٩﴿ وَهُوَ

من البداية، أي: أيس، وإن كان جميعه على الله تعالى هيناً، وقاله ابن عباس. ووجهه أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعباده، يقول: إعادة الشيء على الخالق أهون من ابتدائه، فينبغي أن يكون البعث لمن قدر على البداية عندكم وفيما بينكم»^(١).

يقول الفخر الرازمي رحمة الله معلقاً على هذه الآيات نقلآ: «لو اجتمع كُلُّ الخالق على إثارة حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليهما؛ إذ لا شك أنَّ الإعادة ثانية أهون من الإيجاد أولاً، ونظيره: ﴿فَلَيُحْيِيْهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةً﴾ [يس: ٧٩].

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهُونُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]^(٢).

ويمجموع الآيات السابقة كلها نجد أن أسلوب الآيات يمزج الحجج والبراهين العقلية القاطعة بالكلمات البليغة المؤثرة، والمنطق الصحيح، وبهذا يرد القرآن الكريم على منكري البعث والحساب ويجادلهم ببطل مزاعمهم، ويبعد شبههم الباطلة الواهية في أسلوب بلغ محكم يلزم الحجة في الاستدلال على البعث بعد الموت بالنشأة الأولى.

٤. القادر على الإمامة ثم الإحياء قادر على

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٤/٢١.

(٢) مفاتيح الغيب ٢١/٥٥٦.

الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَسَبَرَ مَسَوِّدَةً
قَدْ فَصَلَنَا الْأَيْمَنَ لِعَوْرٍ يَنْقَهُونَ ﴿٤﴾ [الأنعام: ٩٤-٩٨]

خَرَجُوا مِن دِيَرِهِمْ وَهُمُ الْوَفِ حَذَرَ الْمَوْتَ
فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُؤْمِنُوا ثُمَّ أَحِبُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو
فَضْلِ عَلَى النَّاسِ وَلَا يَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ [البقرة]

وفي هذه الآيات «يقص سبحانه وتعالى علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم على كثرتهم واتفاق مقاصدهم، بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج السلامة من الموت، ولكن لا يعني حذر عن قدر، **فقال لهم** **الله موتوا** **فماتوا** **أتم** إن الله تعالى **أخيته** إما بدعوة النبي أو بغير ذلك، رحمة بهم ولطفا وحلما، وبيانا لأياته لخلقه باليحاء الموتى، ولهذا قال: **لهم** **الله لذوق فضل** أي: عظيم **قتل الناس** **ولكين أتى** **أنت** **أناس** **لا يشكرون** فلا تزيدهم النعمة شكرًا، بل ربما استعنوا بنعم الله تعالى على معاصيه، وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقر بها ويصرفها في طاعة المنعم»⁽¹⁾.

ومنها أيضاً في الاستدلال على البعث قصة العزير عليه السلام وهو أحد أنبياءبني إسرائيل الذي مر على قرية ميتة فاستبعد أن يحييها الله تعالى، فأماته الله تعالى مائة سنة، ثم أحياه.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٦.

وأبعد من ذلك فقد استدل القرآن الكريم في كثير من آياته بقصص وأحداث من أماتهم الله تعالى ثم أحياهم في الدنيا؛ ليثبت قضية البعث بعد الموت، ويدلل على صدق ما أخبر به الرسل من أمر المعاد. ومن هذا الاستدلال ما ورد في سورة البقرة، إذ وردت فيها أحداث متنوعة تدلّ على ذلك:

منها حادثة بني إسرائيل مع نبيهم سيدنا موسى عليه السلام حين قالوا له: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فأماتهم الله تعالى، ثم أحياهم، وفي ذلك يقول الله تعالى مخاطبًا بني إسرائيل في معرض الامتنان عليهم: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَىٰ لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَقّ رَأْيِ اللَّهِ جَهَرَةً فَأَخَذْنَاهُ الْعَنْقَةَ وَأَشْنَدْنَاهُ نَظَرَهُ﴾ [٦٦] ثم يعثثهم من بعد موتها لعلكم تشكرون [٦٧] وظللنا عينكم الغمام وأزلنا علىكم المحن والسلوى كثروا من طيبت ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون [٦٨] [البقرة: ٥٥-٥٧].

وقريب من هذه الحادثة ما تحكى له
السورة المباركة أن أناساً فروا خوفاً من
قدر الله المتحقق في الموت، وهم ألوه،
فوقعوا به فماتوا ثم أحياهم الله بعدها،
يقول ربنا تعالى فيهم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ

نفسها سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى؟ فأمره الله تعالى أن يذبح أربعة من الطير، ويفرقهن أجزاء على الجبال التي حوله، ثم يناديهن، فلتتشم الأجزاء بعضها إلى بعض، ويتآتى إبراهيم سعيًا.

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَولَئِنَّ تُحْيِي مَنْ قَاتَلَ بْنَ وَلَكِنْ لِيَطْعَمُنَّ قَلْبِيٌّ قَالَ فَخَذْ أَرْبَعَةَ يَنِينَ الظَّيْرَ فَصَرَّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِيَنَكَ سَعِيًّا وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وهذه حادثة أخرى يستدل بها القرآن الكريم على البعث بعد الموت بطريقة عملية تطبيقية.

ومنها أيضًا في قصة القتيل الذي اختصم فيه بنو إسرائيل، فأمرهم الله تعالى أن يذبحوا بقرة فيضربيوه ببعضها؛ ليخبرهم بمن قتلها، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَأَذْرَرْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ تَعْلَمُ مَا كُنْتُمْ تَكْنُونُ﴾ ٧١ ﴿فَقُلْنَا أَشْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُنْهَى اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَرَبِّكُمْ مَا يَنْتَهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلُوْنَ﴾ [البقرة: ٧٣-٧٢].

لقد كشف الله لقوم موسى عن الحكمة من ذبح البقرة. لقد كانوا قد قتلوا نفسًا منهم ثم جعل كل فريق يدرأ عن نفسه التهمة ويتحققها بسواء. ولم يكن هناك شاهد فأراد الله أن يظهر الحق على لسان القتيل ذاته

مَرَّ عَلَىٰ قَرْبَتِهِ وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَىٰ عَرْوَشَهَا قَالَ أَنَّ يَتَّبِعِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا قَاتَلَهُ مِائَةُ اللَّهُ مِائَةَ عَارِضَهُ بَعْشَدَ قَالَ كَمْ لَيْتَ قَالَ لَيْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَيْتَ مِائَةً عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَسْتَهِنْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلَنْجَعَلَكَ مَا يَكُونُ لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْوَظَامِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا مِائَةً تَكْسُوْهَا الْحَمَاءَ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وهذه القرية هي: بيت المقدس، خربها الملك الجبار بختنصر وقتل أهلها، فمر عليها عزير، فإذا بالقرية خربة مدمرة، فوقف عزير متفكرا فيما آلت إليه من الخراب، مستعظامًا قدرة الله ومتعترفًا بالعجز عن معرفة طريق الإحياء فقال: ﴿أَنَّ يَتَّبِعِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ !؟ فرأاه الله ذلك في عالم الواقع؛ ليكون ذلك أبلغ في المعرفة؛ لأن أحاسيس الإنسان ومشاعره أحياناً لا تقبل مجرد دليل، فرأاه الله أبعد الأمرين في نفسه على أبلغ وجه، حيث أماته فاختلط لحمه وعظمه وشعره بالتراب ثم أحياء، ثم في غيره حيث أحيى له الحمار وحفظ طعامه من الفساد؛ ليكون ذلك آية على قدرة الله على البعث والإعادة ودرساً لغيره^(١).

ومن هذا الاستدلال في السورة المباركة

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٣/٢٨٩، تفسير القرآن العظيم ١/٦٨٨.

﴿فَإِذَا أَوَى الْفَتَنَةُ إِلَى الْكَهْفِ قَالُوا رَبُّنَا مَا إِنَّا
مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيْقَنَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشِداً ﴾١٠
فَضَرَبَتِنَا عَلَى مَا ذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِينِينَ
عَدَدًا ﴾١١﴾ ثُمَّ بَعْثَتْنَاهُمْ لِتَعْلَمَ أَئِ الْمُغْرِبُونَ أَحَدُونَ
لِمَا إِشَّوْا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٠-١٢].

قال الشوكاني رحمة الله: «فإن من شاهد حال أهل الكهف علم صحة ما وعد الله به من البعث»^(٢)، كما قال تعالى: «وَكَذَلِكَ أَعْزَنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَقَدْ
اللَّهُ حُقُّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَبَّ فِيهَا» [الكهف: ٢١].

إن هذه الحوادث والقصص كلها جاءت؛ لتدل على إحياء الموتى بعد مماتهم، وهذا برهان قطعي على قدرة الله تعالى على ذلك، وعبرة وعظة لمنكري البعث وتبصرة وذكرى لكل عبد منيب.

٥. العدل والحكمة يستلزمان وجود اليوم الآخر.

لم يخلق الله تعالى الخلق عبئاً ولن يتركهم سدى، بل خلقهم لغاية معلومة وهي العبادة؛ لتكون الدنيا دار عمل واختبار لهم، فانقسموا على قسمين: قسم آمن وعمل الصالحات، والقسم الآخر كفر وعصى وعمل السيئات، ومن هنا فإن من حكمة الله ومقتضى عدله وجود البعث ومن ثم الجزاء للخلق بعد الموت؛ ليجزي كل واحد منهم

وكان ذبح البقرة وسيلة إلى إحيائه، وذلك بضرره بعض من تلك البقرة. وهكذا كان، فعادت إليه الحياة؛ ليخبر نفسه عن قاتله، وليجلو الشكوك التي أحاطت بمقته، وليحق الحق ويبطل الباطل بأوثق البراهين. حادثة أمام العيان لم يكن الغرض منها إحياء هذا الميت؛ ليكشف لهم عن قاتله فحسب، بل ليكشف الله للقوم بأنه جعل ذبح البقرة وسيلة ظاهرة تكشف لهم عن قدرة الله في إحياء الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل، حتى يلغوا من بعدهم قدرة الله تعالى على الإيجاد والمعاد^(١).

ومن هذا الاستدلال أيضا الذي دل على إمكان إحياء الموتى. ما جعله الله تعالى من آيات عيسى بن مريم في إحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: «وَوَسُولًا إِلَى بَيْتِ
إِسْرَائِيلَ أَتَى فَقَدْ جَنَحُوكُمْ وَإِيَّاكُمْ فَرَأَيْتَكُمْ أَنَّكُمْ لَمْ تُؤْمِنُو
لَكُمْ مِنْ أَعْلَمِنَ كَهْنَةَ الظَّاهِرِ فَأَنْجَنْتُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًا يَأْذِنُ اللَّهُ وَأَبْرِئُ الْأَكْسَاءَ
وَالْأَبْرَصَ وَأَتَيَ الْمَوْتَ يَأْذِنُ اللَّهُ وَأَنْجَنْتُكُمْ بِمَا
تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي يَوْمِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَكَبِيرَةُ الْكُمُّ إِنْ كُثُرْ مُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ومن ذلك أيضا ما أخبر الله عن قصة أصحاب الكهف، إذ لبوا وهم رقود في كهفهم مدة طويلة ثم بعثهم قال تعالى:

(٢) فتح القدير / ٣٢٨.

(١) انظر: في ظلال القرآن / ١-٧٩.

الدنيا لا يؤمر ولا ينهى ويترك في قبره سدى دون أن يبعث؟! إن ذلك لا يليق بحكمة الله، فكل شيء يصدر عنه سبحانه له حكمة تقتضيه^(١).

وعدل الله لا يسوى بين من أحسن وأساء قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ أَجْرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَعْمَلُوهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا وَعَمِلُوا الصَّلَاحَتِ سَوَاءً تَخَيَّلُوهُمْ وَمَمْنَاهُمْ سَأَلَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

قال ابن القيم رحمه الله: «لهذا كان الصواب أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجهه»^(٢).

وحكمته تعالى تقتضي أن تكون هناك حياة ثانية بعد الحياة الدنيا، يقام فيها ميزان العدل الإلهي، وينال كل عامل جزاء عمله خيراً كان أم شراً، وهذا ما أكدته القرآن وأشارت إليه آياته وقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ إِنَّمَا أَكَادُ أَخْفِيَهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَ﴾ [طه: ١٥].

وغيرها من الآيات.

٦. القياس على المحسوسات كالنباتات.
ذكرنا -فيما سبق- أدلة على البعث وكانت أغلبها- إن لم تكن كلها- أدلة عقلية، وفي القاسم نذكر بعض الأدلة الحسية من

(١) انظر: المصدر السابق ٣/٥٩٢.

(٢) الفوائد، ص. ٧.

الجزاء الأولي على ما قدم في الدنيا، فيثبت المحسن منهم ويعاقب المسيء، ولو لم يكن هناك بعث للخلق وحساب لهم على أعمالهم التي قدموها في الحياة الدنيا، لكن الخلق كله عبشاً باطلًا ولانتفت صفة العدالة في حقه تعالى، وهذا أمر لا يتفق مع حكمة الله تعالى وعدله وهو مناقض ومعارض للعدل الرباني الإلهي؛ لأن الله خلق الخلق لعبادته، وأرسل الرسل وأنزل عليهم الكتب؛ لبيان الطريق الموصلة إليه، وعليه فإن ذلك يستلزم الحساب والجزاء -كما سبق-.

وقد جاءت آيات كثيرة من القرآن الكريم تبين أن البعث ضرورة يقتضيها عدل الله وحكمته وقرر ذلك، منها قوله تعالى: ﴿أَنْجُلَ الْمُتَسْلِمِينَ كَلَّا لَمِنْ يَنْهَا مَا لَكُوكَبَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦].

آيات ابتدأت المحاججة بالاستفهام الإنكارى؛ لنفي التساوى بين المسلمين والكافرين في الجزاء، وإبطال زعم الكافرين بالتساوي حينها. أي: لا يكون المسلمون كال مجرمين الكافرين في سوء الحال والمال.

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبُوكُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبْدًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعْلَمَ اللَّهُ الْعَلِيقُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْرِّزْقِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٦].

فهل يظن عاقل أن يترك الإنسان في هذه

وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِدُ إِلَى أَرْذَلِ الْعُشْرِ لِصَّيْلَا
يَعْلَمُ مِنْ بَعْدِ عَلِمَ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً
فَإِذَا أَرْتُنَا عَلَيْهَا الْمَلَةَ أَهْزَتَ رَوَبَتْ وَأَبْتَتْ
مِنْ كُلِّ ذَوْجٍ بِهِيجٍ ⑥ ذَلِكَ يَانَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ
وَأَنَّهُ يَعْلَمُ الْمَوْقِعَ وَالْمَهْمَلَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَقَدِيرٌ ⑦ وَلَذِكْ
السَّاعَةَ مَارِثَةٌ لَا رَبَّ فِيهَا وَلَذِكْ اللَّهُ يَعْلَمُ مَنْ فِي
الْقُبُورِ ⑧ [الحج: ٥-٧].

فهذا مثل ضربه الله تعالى بإحياء الأرض بالنبات بعد إنزال المطر عليها كدليل آخر على قدرته تعالى على إحياء الموتى، فكما يحيي سبحانه الأرض الميتة التي لا نبت فيها ولا ماء يحيي الله تعالى الموتى عندبعث، فجعل الله سبحانه وتعالى إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وأخرج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالناظر على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلًا على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحيي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إثبات الساعة، وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور كما أخرج النبات من الأرض ^(١).

(١) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن

واقع الإنسان الذي يعاشه تدل على صدق البعث والنشور بعد الموت، أدلة حسية ملموسة في الأرض والسماء، كتاب الله المنظور، تأتي آيات القرآن الكريم - الكتاب المسطور - لتعبير عنها بأبلغ بيان وأحسنه وتقرها، أدلة جعلها الله لكل ناظر فيها الفوز والنجاة، ومن هذه الأدلة الحسية التي يشير إليها القرآن الكريم: الأرض اليابسة القاحلة الميتة، ومنها أيضًا: النبات وغيرها التي تأتي في مقام الاستدلال ومحاججة الكافرين ومنكري البعث على أن الله تعالى هو الخالق وحده لهذا الكون العظيم القادر على إفنائه، وهو وحده القادر على إعادة الخلق بعد مماتهم في اليوم الآخر بعد فناء الدنيا وزوالها، قال تعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام وهو يدعو قومه إلى معرفة أمر البعث فيقول: ﴿وَلَهُ أَنْتَكُرُ مِنَ الْأَرْضِ بَاتًاٰ تَمْ بَعْدَكُرُ فِيهَا وَتَخْرُجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٨-١٧].

ومن آيات الاستدلال بالأدلة الحسية: الأرض الميتة اليابسة التي لا نبات فيها وذلك في قوله تعالى: ﴿يَاتَاهَا النَّاسُ إِنْ كَثُرُ فِي رَبِّ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخْلَقُو وَغَيْرِ مُخْلَقُو لِتُبَيَّنَ لَكُمْ وَتُقْرَرُ فِي الْأَنْجَارِ مَا نَسَأْتُمْ إِنَّ أَجَلَ مُسَيَّرٍ مِمْ تَخْرِجُكُمْ طَفْلًا ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشْدَدَكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُنَوِّفُ

طريقة الناس في معرفتهم لنشأة هذه الحياة، أي: كما أحيا الله الأرض الميتة بالماء، كذلك يحيي الموتى من قبورهم تصوير لكيفية انبات الحياة في الأبدان المودعة في القبور، بحال انبات الحياة في النبات المودعة في الأرض، بما يطرأ عليهم من أحوال مختلفة من حياة وموت بطريقة متغيرة.

ومن آيات الاستدلال أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمِنْ مَا يَنْهَا إِنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَلِيقَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْبَرَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَهُ الْمَوْقِعُ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

آية يؤثرها التعبير القرآني بأسلوب الخطاب، وهو خطاب عام، والمعنى: ومن العلامات الواضحة والدلالات القاطعة على وجوده، وعلى البعث وأنه يحيي الموتى هذه الصورة المحسوسة. وأدخل المخاطب في جو الآية؛ ليماش رؤية هذا المشهد المليء بالحركة بعد السكون، فالإنسان المنكر للبعث يرى في كل زمان ومكان الأرض ﴿الْأَرْضَ خَلِيقَةً﴾ هكذا على سبيل استعارة الخشوع - وهو (التذلل) - لحال الأرض إذ

كانت مقحطة يابسة لا نبات عليها.

وقد أوثرت هذه الاستعارة في هذه الآية، في حين وصفت الأرض في سورة الحج بأنها هامدة في قوله تعالى: ﴿وَقَرِيَ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْبَرَتْ﴾

قال ابن عاشور رحمة الله: «وهذا ارتقاء في الاستدلال على الاحياء بعد الموت بقياس التمثيل؛ لأن استدلال بحالة مشاهدة، فلذلك افتح بفعل الرؤية، بخلاف الاستدلال بخلق الإنسان؛ فإن مبدأ غير مشاهد، فقيل في شأنه: ﴿فَإِنَّا حَلَقْنَا مِنْ تُرَابٍ﴾. ومحل الاستدلال من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْبَرَتْ﴾، فهو مناسب لقوله في الاستدلال الأول: ﴿فَإِنَّا حَلَقْنَا مِنْ تُرَابٍ﴾، فهمود الأرض بمنزلة موت الإنسان واهتزازها وإنباتها بعد ذلك يماثل الاحياء بعد الموت»^(١).

ومن الآيات التي تبين قدرة الله تعالى على البعث وتدليل عليه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي تُرِسِّلُ الرِّيحَ فَتُثْرِي سَحَابًا فِي سَمَاءِ كَفَافٍ يَشَاءُ وَمَجْعِلُهُ، كَسَفًا فَتَرَى الْوَدَقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ هُرُّ يَسْتَبَرُونَ﴾ [٤٦] وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْذَلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمْ يُلْبِسُنَّ﴾ [٤٧] فَأَنْظُرْ لِي مَا تَرِدْ رَحْمَتَ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتَهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمْحِيَ الْمَوْقِعُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَادِيرٌ﴾ [الروم: ٤٨-٥٠].

وفي هذه الآيات يربط القرآن الكريمحقيقة الحياة الدنيا لبعض مخلوقات الله وبين النشأة الأخرى، موضحاً ذلك على

القيم، ٣٠١ / ٨.

(١) التحرير والتنوير ٢٠٣ / ١٧.

ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَرْسِلُ الرِّيحَ بُشِّرًا بِئْتَ يَدَنِ رَحْمَةً حَقَّ إِذَا أَفْلَثَ سَحَابًا فَقَالَ سُقْنَةُ الْكَلْمَيْتِ فَأَنْزَلَنَا يَدَهُ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا يَدَهُ مِنْ كُلِّ الشَّرَّاتِ كَذَلِكَ شَفَعَ الْمَوْقَعَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وفي هذه الآيات السابقة استدلال بتبدل أحوال الأرض والنباتات من موت إلى حياة، وسلب خاصية النشوء والنمو في بعض النباتات فتهدم وتتفتت ثم تسقى بالماء فتعود إليها تلك الخاصية، فلو كان مستحيلاً إعادة الحياة إلى الإنسان مرة أخرى لما عادت الحياة إلى النباتات المختلفة بعد موتها؛ لأن المشابهة واضحة في القدرة الإلهية في إعادة الحياتين سيرتهما الأولى.

ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار المنكريين إلى التبصر في الموجودات الحسية واستنتاج العظات وال عبر منها؛ ليعود للنفس إيمانها فتسعد بالطمأنينة والاستقرار، وقد تقدمت المشابهة بين إعادة الحياة إلى النبات بالمطر وإعادة بناء الأجسام وإنباتها بالمطر الذي يجعله الله عند البعث وهو مطر كمني الرجال فتنبت منه الأجسام. ولهذا يقول تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ قَعَدْ قَوْلَمْ﴾ [الرعد: ٥].

إشارة إلى أن العجب يكون من إنكارهم لا من البعث و معناه: إن كان لك عجب

وربّت، وهي صفات إنسانية أضفها التعبير القرآني على الأرض، فأخرجها بهذه الصورة الموحية المؤثرة، والصفتان تعبران عن معنى واحد، وهو ما يظهر على الأرض من آثار الجدب وفقدان معالم الحياة.

ويتناسب اختيار الصفتين مع هدف الآيات في عرض قدرته تعالى على إحياء الأرض وهو إثبات البعث والنشور وإحياء الموتى، فكما أن الأرض **فتحشة** **وْهَامَدَة** لا حياة فيها ولا روح قبل نزول الماء عليها، كذلك **الموتى** هامدون، وكما تستجيب الأرض الميتة وتهتز وتربو وتدب الحياة فيها بسبب الماء النازل، كذلك فإن الله الذي أحياها لمحبي الموتى، فالآياتان ذات دلالة شاملة من خلال اقترانهما بالسماء والأرض، وبذلك تحقق شمول العبرة لكل كائن على الأرض، وتحقيق نعمة الهدى، فضلاً عن أن حيوية الصورة قائمة بتجددها واستمرارها؛ لأن إنزال الماء على الأرض عملية مكررة مع الزمان والمكان، فهي قائمة ما دامت السموات والأرض، شاهدة على قدرته تعالى، يعتبر بها جيل بعد جيل، ولا بد من ملاحظة التناسب والانسجام بين الفكرة المراد إثباتها وبين الاستعاراتين، فهو تناسب وتأليف محكم^(١).

(١) انظر: الاستعارة في القرآن الكريم، أحمد فتحي رمضان، ص ١٤٢ و ٢٢٣ - ٢٢٤.

للحياة، فإذا أوقدت به النار دبت في الحركة وأضطرب، وهذه آثار الحياة، فمن قدر على هذا قادر على إحياء الموتى، وقد ذكر الله تعالى هذا الدليل في موضع آخر في معرض الاستدلال على ألوهية الله وربوبية، وإثبات البعث والحساب، ومحاججة منكريه، وإبطال اعتقادهم الفاسد في سورة الواقعة، وبعد أن أكد سبحانه البعث إجمالاً في معرض الرد على الكافرين في قوله تعالى:

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِنَا مِنْ شَيْءٍ وَكَذَّا نَرَبُّا وَعَظَلْنَا أَوْنَا لَمْ يَعْلُوْنَ ﴾١٧﴾
 ﴿أَوْ مَا بَأْتُنَا الْأَرْضَنَ ﴾١٨﴾
 ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلَيْنَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِنَّكَ مِنْ قَدِّيْتَ يَوْمَ مَقْتُلَمْ ﴾١٩﴾

[الواقعة: ٤٧-٥٠].

يرجع السياق لإثبات البعث بمحاجتهم بما يرون به بأعينهم من أدلة وبراهين ثابتة فيبدأ سبحانه بقوله: **﴿فَنَعَنْ خَلْقَنَّكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾**
 [الواقعة: ٥٧].

وهذه الحقيقة لا ينكرها مشركون العرب، فهم كانوا يؤمّنون بأن الله تعالى هو الخالق، فخطابهم تقريراً لهم بأن من خلقهم أول مرّة سيعيدهم إلى الحياة بعد الموت، وهذا ما يدل عليه حذف مفعول الفعل **﴿تُصَدِّقُونَ﴾** أي: بالبعث والحساب. ثم تأتي الآيات لتعقد حواراً مع الكافرين لمحاجتهم عن طريق الاستفهام؛ لبيان عظمة الله تعالى وقدرته في هذا الكون وصولاً إلى تقريرهم وإثبات البعث وذلك في قوله تعالى: **﴿أَفَرَأَيْتَ مَا**

من شيء فمن إنكارهم البعث، فاعجب؛ لأن العجب ما ندر وجوده وخفي سببه، وليس البعث مما ندر، وهم يشاهدون إحياء الأرض بعد موتها، واكتساه الأشجار بعد عريها، وعود النهار بعد زواله، والليل بعد ذهابه، وإنخرج الحي من الميت والميت من الحي، ولا مما خفي سببه فإن الله سبحانه هو الفاعل لذلك والمختار له والقادر عليه وحكمته إظهار ما استتر عن خلقه من تدبيره، وما النشأة الثانية بأعجب من الأولى.

ومن طرق الاستدلال التي تبين قدرة الله تعالى على البعث وتدلّل عليه بدليل واقعي حسي: (إخراج النار من الشجر الأخضر) في قوله تعالى: **﴿أَوْلَئِرَ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَسِيدٌ مُّبِينٌ ﴾٢٠﴾** وضرر لناساً كثراً ونبي خلقه. قال من يحيي العظام وهي رميم؟ **﴿قُلْ يُحْيِيهَا أَلْيَقَ أَنْشَأَهَا أَوْلَ مَرَّةً وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيهِ ﴾٢١﴾** الذي جعل لكلّ من الشجر الأخضر ناراً فإذا أشئ منه توقدون **﴿أَوْلَئِنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْدِيرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلْ وَهُوَ الْخَلَقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَنْزَلَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾٢٢﴾** **﴿فَسَبِّحْنَ الَّذِي يَدِيهِ مَلْكُوتُ كُلِّ شَوْرٍ وَلَيْهِ شَرْحُونَ ﴾٢٣﴾**

[يس: ٧٧-٨٣].

فهذه الآيات تدلّل على البعث عن طريق الشجر المقطوع لإيقاد النار، فالشجر إذا قطع وأصبح حطباً يكون ميتاً وليس فيه أثر

النوم واليقظة) باعتبارهما نموذجاً متكرراً للموت والحياة للإنسان؛ لأن النوم هو في الحقيقة موت أصغر؛ إذ إن كلاً منها عبارة عن انسحاب من الحياة وتوقف الأعضاء عن أداء مهامها، على درجات متفاوتة بينهما، واليقظة شبيهة بالبعث؛ إذ إن كلاً منها يعني عودة الأعضاء إلى أداء وظائفها مع اختلاف بينهما في الدرجة.

و جاء هذا الاستدلال في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿أَللّٰهُ يَتُوفّيُ الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَلَيْسَ لَهُ تَمَّتُ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ إِلَيْهِ قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتُ وَيُرِسِّلُ الْأُخْرَى إِلَيْهِ أَجَلٌ مُسَمٌّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ﴾ [آل زمر: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللّٰهُ يَتَوَفّيُ كُلَّمَا يَأْتِيَلَ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحَشُدُ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلُ مُسَمٌّ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ يُبَثِّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [١٠] وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادَتِهِ وَيُرِسِّلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تُوْقَتُهُ رُسْلَنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [آل الأنعام: ٦٠-٦٢].

آيات وإن كانت خبراً من الله تعالى عن قدرته وعلمه، فإن فيها احتجاجاً على المشركين به الذين كانوا ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم، ويعتهم بعد فناهم^(٢). فدللت بذلك على إمكان البعث والحضر؛

(٢) انظر: جامع البيان ٤٠٦ / ١١.

شمتوهن ﴿٤٤﴾ مَا شَرَّتْ تَحْلِقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْمُتَلْقِونَ ﴿٤٥﴾ نَحْنُ قَدْرًا يَنْكِرُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمُسْبِقِينَ ﴿٤٦﴾ عَلَى أَنْ تُبَدِّلَ أَمْتَلَكُمْ وَتُنْشِكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشَاءَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٨﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَخْرُثُونَ ﴿٤٩﴾ مَا أَنْتُمْ تَزَرَّعُونَهُ أَمْ نَحْنُ أَنْزَلْنَاهُ أَنْزَلْنَا الرَّزْعَونَ ﴿٥٠﴾ لَوْلَا نَشَاءَ لَجَعَلْنَاهُ حُطَّلَنَا نَقْلَلَنَا نَقْلَلَهُونَ ﴿٥١﴾ إِنَّا لِمَغْرُومُونَ ﴿٥٢﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٥٣﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشَوِّيُونَ ﴿٥٤﴾ مَا أَنْتُمْ أَنْزَلْنَتُمُوهُ مِنْ الْمَرْزَقَنَمْ نَحْنُ الْمَازِلُونَ ﴿٥٥﴾ لَوْلَا نَشَاءَ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشَكُّرُونَ ﴿٥٦﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْأَنَارَ الَّذِي تُوْرُونَ ﴿٥٧﴾ مَا أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَةً أَرْتَنَحْنُ الْمُنْشَقُونَ ﴿٥٨﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا نَذَرَةً وَمَنْتَعًا لِلْمُغَوِّبِينَ ﴿٥٩﴾ فَسَيَّغَ يَاسِرَ رَيْكَ الْعَظِيمِ ﴿٦٠﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٧٤].

ويلاحظ على الآيات أنها أدرجت ضمن منظومة قرآنية تميزت بوحدة الموضوع والسياق والأسلوب، حتى إنها مختضت عن قاعدة أسلوبية في أدب الحوار والاستدلال، الاستدلال على قدرة الله تعالى على الخلق، والتصديق بحقيقة البعث، ولقد أتي الاستدلال بالنعم وفق تسلسل منطقي؛ إذ ابتدأ بذكر المتنعم بالنعم نفسه وهو الإنسان، فقدم بذكر خلقه، وأعطاه الأهمية والأولوية، ثم ذكر النعم المسخرة له^(١).

ومن الأدلة على إمكانية البعث وطرق الاستدلال الواقعية الحسية عليه: (ظاهرة

(١) انظر: آيات الأنواء الجوية في القرآن، أحمد عامر سلطان، ص ١٢١.

إزاره، فإنه لا يدرى ما خلفه عليه، ثم يقول: باسمك رب وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين^(٢).

وعن البراء أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أخذ مضجعه قال: (اللهم باسمك أحيا، وباسمك أموت) وإذا استيقظ قال: (الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا، وإليه النشور)^(٣).

لأن النشأة الثانية متزالتها بعد الأولى كمتزلة اليقظة بعد النوم في أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الأخرى، ولذلك ناسب تذليل الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

أي: في معرفة حقيقة ما بين الموت والحياة واليقظة والنوم من المناسبة، فإذا جهلنا حقيقة النوم وكيفية حصوله رغم بساطته ورغم تعاقبه والتلاصقه بحالنا، فمن باب أولى ألا ندرك سر الإحياء وحقيقةه، فكم في الكون أشياء لا يدرك العبد -على بساطتها- حقائقها لما أودع الله فيها من الأسرار والكوامن ما يقف الإنسان عندها مستسلماً مستضعفًا نفسه مستصغراً تفكيره مؤمناً موقفاً، مع ما في ذلك من منافاة الإيمان بالغيب^(١).

ومثل هذا الاستدلال جاءت آيات كريمات أخرى. والنبي صلى الله عليه وسلم حول بمنهجه الإصلاحي هذه الحقيقة إلى أمر واقعي يستشعره المرء المسلم كل يوم صباحاً ومساءً، -فيذكر الموت والبعث ولا يغفل عنهما البتة، بقوله صلى الله عليه وسلم أمراً صحابته رضي الله عنهم فيما رواه البخاري عن أبي هريرة: (إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينفض فراشه بداخلة

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٣٢٠، كتاب الدعوات، باب التعود والقراءة قبل النوم، ٧٠ / ٨.

(٣) أخرجه سلم في صحيحه، رقم ٢٧١١، كتاب الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، ٤ / ٢٠٨٣.

(١) انظر: منهج القرآن في إثبات عقيدة البعث بعد الموت، منظور بن محمد رمضان ص ٩٢.

أبرز أحداث اليوم الآخر

أولاً: أحداث كونية:

١. تصدع الكون وتبديله.

فصل القرآن الكريم في مشاهد اضطراب
النظام الكوني وتداعيه في اليوم الآخر،
فعرض المشاهد الأولى له وشخصها بكل
دقّة للسامع تشخيصاً بيناً دقيقاً، وصور حال
الأرض والسموات حينها، وكيف تبدل
صورتها وتتغير بما هي عليه في الحياة
الدنيا.

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ عَنِ الْأَرْضِ
وَالسَّمَاوَاتُ بَرِزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [ابراهيم: ٤٨].

وذكر ما يحل بالكون من خرابٍ ودمارٍ
وتغيير لمعالمه، وسنحاول جهد الإمكان
عرض هذه المشاهد بحسب وقوعها
وترتبها الزمني، وإن كانت بعض هذه
المشاهد متداخلةً فيما بينها، ومن أولى
المشاهد التي تحصل ما جاء في قوله تعالى:
﴿فَإِذَا وَقَعَتِ الْرَّاْفِعَةُ ﴾ ① **لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كاذِبَةً**
﴿خَافِضَةً رَّافِعَةً ﴾ ② **إِذَا رُحِّتَ الْأَرْضُ رَجَّا**
﴿وَرَسَّتَ الْجِبَالُ بَسَّا ﴾ ③ **فَكَانَتْ هَبَّةً مُثْبَتًا**
﴿وَنَفَّتْمُ أَزْوَاجًا تَلَنَّةً ﴾ ④ [الراقة: ١-٧].

فهذه آياتٌ تصوّر حال الكون، وما
يجري فيه من تغييرٍ واضطرابٍ عند قيام
الساعة، صورةٌ كلها تهويلاً وتفخيماً لهذا

اليوم، والتهويل يتجلّى من المطلع، إذ يبدأ بـ﴿إذا﴾ الشرطية؛ لشد ذهن السامع إلى ما بعدها مع حذف جوابها، وفي هذا الحذف تحقيق لدلالة التهويل والتخفيم؛ إذ يترك لخياله ونفسه أن يذهبا في تخيله وتصوره كل مذهب، وكأن هذا الجواب لا تحيط به صفة الألفاظ والعبارات. ويبيّن سبحانه ما يحل على الأرض من دمار عند قوعها، فيقول مكرراً: ﴿إذا﴾ لزيادة التهويل والتخفيم في: ﴿إذا رُحِتَ الْأَرْضُ رَجَا ۖ وَسَطَ الْجَبَالُ ۖ إِذَا نَكَتَ هَبَاءً مُلْبَثًا ۖ﴾ فالأرض سترج حتى تهدم الجبال الرواسي وتكون أثراً بعد عين، أي: أصبحت الجبال بعد هذا البس كالغبار المتشوّر المتطاير، تشبيهٌ زاد من تهويل هذا اليوم وفظاعته، ولدلالة على تحقق هذا الأمر بالرج والبس أكدت الأفعال بمصادرها في قوله تعالى: ﴿إذا رُحِتَ الْأَرْضُ رَجَا ۖ وَسَطَ الْجَبَالُ بَسًا ۖ﴾^(١).

وهذا التحرير والتسيير للجبال جاء مرافقاً لمشهد اضطراب السماء وتموجهاً في موضع آخر في قوله تعالى: **(يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا) ① وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا** [الطور: ٩-١٠].

مشهدٌ يصور السماء وهي تتموج وتضطرب، والجبال تتحرك من مكانها وتتسير؛ لتتول إلى هباء منبئ. وفي موضع

^{١١}) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٧ / ٢٨٤.

تصویر حال السماء والأرض، ويلاحظ أن أكثرها بدأ بـ **(إذا)** الشرطية مع حذف جوابها للاهتمام بما بعدها، وشد ذهن السامع إليها، مع تقديم المستند إليه بعدها، هذا التقديم الذي يحدث تهويلاً قد لا نجده في تأخيره، وبهذا المتلقي ويلفته إلى أمر غريب لم يحصل مثله في الدنيا، فالسماء لم يسبق لها أن انفطرت أو انشقت، ولا الكواكب اندرلت أو انكدرت، ولا البحار سجرت أو فجرت، وغيرها من الأحداث الغريبة غير المألوفة **(٢)**.

ومن ذلك قوله تعالى: **(إذا أَسْنَأَتْ**
وَأَذْنَتْ لِرَبَّهَا وَحْقَتْ ① وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ②
وَلَقَتْ مَا فِيهَا وَقْلَتْ ③ وَإِذَا لَرَبَّهَا وَحْقَتْ ④)
 [الأشقاق: ٥-١].

وبالأسلوب نفسه نجد أن مشهد الخراب يأتي على الكواكب والبحار في قوله تعالى: **(إذا أَسْنَأَهُ أَنْفَطَرَتْ ⑤ وَإِذَا الْكَوَافِكُ أَنْتَرَتْ**
وَإِذَا الْبَحَارُ فَجَرَتْ ⑥) [الانفطار: ١-٣].

ويتوسع القرآن في بيان مشاهد التغير والخراب في الكون في قوله تعالى: **(إذا**
أَشْتَشَ كُورَتْ ⑦ وَإِذَا أَثْبُومُ انْكَدَرَتْ ⑧ وَإِذَا
الْمِجَالُ شَرَرَتْ ⑨ وَإِذَا الْعَشَارُ عَطَلَتْ ⑩ وَإِذَا
الْأُرْحُوشُ حُشِرتْ ⑪ وَإِذَا إِلْحَارُ شَرِحَتْ ⑫
وَإِذَا أَنْفُوشُ رُوِيَّجَتْ ⑬ وَإِذَا الْمَوْهَدَةُ شَلَّتْ ⑭)

(٢) انظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم، حميد أحمد عيسى العامري، ص ٨٢.

آخر نجد تشبيه الجبال الرواسي بعد هذا الرج والبس بالصوف المنفوش في قوله تعالى: **(وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعَيْنِ الْمَنْفُوشِ ⑮)** [القارعة: ٥].

فالجبال تصبح كالصوف المتناثر هنا وهناك، صورةٌ تشبيهيةٌ تبين هشاشة الجبال وفتتها يوم القيمة حتى تغدو كالصوف المتناثر المتطاير. ومشهد نصف الجبال وبيان حالها تكرر في القرآن الكريم في أكثر من موضع.

وفي موضع آخر نقرأ آياتٍ كريماتٍ تصف ضعف وهوان الدنيا التي ما إن ينفع في الصور حتى تذهب زيتها وتتباهي، وتهدم معالمها وذلك في قوله تعالى: **(إِذَا**
نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفَخَةً وَجَدَهُ ⑯ وَجَلَّتِ الْأَرْضُ وَلَمْ يَأْلِ
فَدَكَكَادَكَةً وَجَدَهُ ⑰ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِمَةُ ⑯
وَأَسْنَأَتِ الْسَّمَاءُ فِيهِ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَّةً ⑯) [الحاقة: ١٣-١٤].

آياتٍ كريماتٍ تنقل مشاهد اليوم الآخر وتركت على تصویر أحداثه لا ذكر محدثه، حتى ليخيل للمرء أن هذه الأشياء منقادة انقياداً إلى سرعة الاستجابة للفعل، فتنخلع الأفتدة وترتعد الفرائص من هول ما يحدث آنذاك ترهيباً وتخويفاً **(١)**.
 وتنبع مشاهد الاضطراب الكوني في

(١) انظر: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية، أحمد محمد سعد، ص ٢٦٥.

يَا إِنِّي ذَئْبٌ فَتَلَتْ ⑩ وَإِذَا أَشْهَدُ شَيْرَتْ ⑪ وَإِذَا
السَّمَاءَ كَثُرَتْ ⑫ وَإِذَا أَجْجَمُ شَعَرَتْ ⑬ وَإِذَا الْجَنَّةَ
أَزْلَقَتْ ⑭ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَخْضَرَتْ ⑮ [التکویر:
. ١٤-١]

٢. النفح في الصور.
من مشاهد الأحداث الكونية النفح
بالصور فيكون البعث والنشور بعدها.
والصور قرن كالبوق، يأمر الله تعالى
إسرافيل عليه السلام أن ينفع فيه النفحـة
الأولى وهي نفحـة الصـدقـعـ، فيصـعـقـ منـ فيـ
السمـوـاتـ وـمـنـ فـيـ الـأـرـضـ إـلـاـ مـنـ شـاءـ اللـهـ،
ثـمـ يـأـمـرـهـ أـنـ يـنـفـخـ النـفـحةـ الثـانـيـةـ وهـيـ نـفـحةـ
الـبـعـثـ، فـإـذـ الـخـلـاقـ قـيـامـ يـنـظـرـونـ، ويـمـثـلـ
الـبـعـثـ وـالـنـشـورـ أـوـلـ مـرـاحـلـ الـيـوـمـ الـآـخـرـ.

وقد تنوّعت مشاهد البعث في التعبير
القرآنـيـ فـبـيـنـتـ مشـاهـدـ النـفـحـ فـيـ الصـورـ
وـمـشـهـدـ بـعـثـ النـاسـ مـنـ قـبـورـهـمـ استـعـداـ
لـحـسابـهـمـ، معـ وـصـفـ حـالـ النـاسـ وـهـمـ
يـسـتـقـبـلـونـ النـدـاءـ وـالـتـرـكـيزـ عـلـىـ حـالـ الـكـافـرـينـ
حـيـثـنـذـ، وـالـنـفـحـ فـيـ الصـورـ هوـ أـوـلـ مـرـاحـلـ
الـيـوـمـ الـآـخـرـ، وـالـصـورـ هوـ النـاقـورـ كـمـ سـمـاءـ
الـلـهـ تـعـالـيـ فـيـ قـوـلـهـ: ﴿فَإـذـ يـنـقـرـ فـيـ النـاقـورـ﴾
[المـدـثـرـ: ٨ـ].

وـمـاـ جـاءـ فـيـ بـيـانـهـ قـوـلـهـ تـعـالـيـ: ﴿وـنـفـحـ فـيـ
الـصـورـ فـصـعـقـ مـنـ فـيـ السـمـوـاتـ وـمـنـ فـيـ الـأـرـضـ
إـلـاـ مـنـ شـاءـ اللـهـ﴾ [الـزـمـرـ: ٦٨ـ].

وـقـوـلـهـ تـعـالـيـ: ﴿وـيـوـمـ يـنـفـحـ فـيـ الصـورـ فـقـرـعـ
مـنـ فـيـ السـمـوـاتـ وـمـنـ فـيـ الـأـرـضـ إـلـاـ مـنـ شـاءـ اللـهـ
وـكـلـ آـنـوـهـ دـخـرـيـنـ﴾ [الـنـمـلـ: ٨٧ـ].

وـهـذـهـ هـيـ النـفـحةـ الـأـولـيـةـ التيـ تقـضـيـ عـلـىـ
الـخـلـاقـ كـلـهـ إـلـاـ مـاـ شـاءـ اللـهـ تـعـالـيـ فـبـعـدـ أـنـ

فـهـذـهـ آـيـاتـ تـصـورـ ماـ يـحـلـ بـالـكـوـنـ مـنـ
اضـطـرـابـ وـتـحـولـ يـمـسـ كـلـ أـرـكـانـهـ، ذـلـكـ
الـتـغـيـرـ الـعـنـيفـ الـمـتـمـثـلـ فـيـ طـمـسـ الـأـنـوـارـ،
وـانـدـثـارـ الـنـجـومـ، وـتـسـيـرـ الـجـبـالـ، وـتـفـجـيرـ
الـبـحـارـ وـغـيـرـهـاـ مـنـ صـورـ الـخـرـابـ الـذـيـ شـمـلـ
كـلـ شـيـءـ فـيـ الـأـرـضـ وـالـسـمـاءـ.

وـتـغـيـرـ الـأـلـفـاظـ وـيـقـيـ الـأـسـلـوبـ نـفـسـهـ
فـيـ عـرـضـ مـشـاهـدـ الـاضـطـرـابـ فـيـ هـذـاـ
الـنـظـامـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـيـ: ﴿وـالـمـرـسـلـتـ عـرـفـاـ﴾ ①
فـالـمـنـقـتـ عـصـفـاـ ② وـالـنـشـرـتـ تـنـرـاـ ③ فـالـنـقـتـ
فـزـنـاـ ④ فـالـنـقـتـ ذـكـراـ ⑤ عـدـرـاـ أـوـ نـذـرـاـ ⑥
إـنـمـاـ تـوـعـدـونـ لـوـقـعـ ⑦ فـإـذـاـ الـتـجـمـعـ طـمـسـتـ ⑧
وـإـذـاـ السـمـاءـ فـرـجـتـ ⑨ وـإـذـاـ الـجـبـالـ ثـيـفـتـ ⑩ وـإـذـاـ
الـرـسـلـ أـفـقـتـ ⑪ لـأـيـ وـمـلـيـتـ ⑫ لـيـوـمـ الـفـقـلـ ⑬
وـمـاـ أـدـرـيـكـ مـاـيـقـمـ الـفـقـلـ ⑭ وـبـلـ رـوـمـيـنـ الـمـكـرـيـنـ ⑮﴾
[الـمـرـسـلـاتـ: ١٥-١ـ].

فـالـأـيـاتـ تـصـورـ مـشـاهـدـ الـاضـطـرـابـ فـيـ
الـنـظـامـ الـكـوـنـيـ، الـمـتـمـثـلـ فـيـ تـلـكـ الـحـرـكـةـ
الـعـنـيفـةـ الـتـيـ تـجـتـاحـ كـلـ شـيـءـ، وـتـشـيرـ كـلـ
شـيـءـ، فـتـطـمـسـ الـنـجـومـ، وـتـنـشـقـ السـمـاءـ،
وـتـنـسـفـ الـجـبـالـ، فـتـلـاـشـيـ الـثـوـابـ، وـيـحـلـ
الـرـوـعـ مـحـلـ الـأـمـنـ فـيـ الـأـرـضـ، وـالـصـخـبـ
مـحـلـ السـكـونـ.

فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ [النازعات: ١٣-١٤].
وغيرها. فما هي إلا نفخة واحدة والكل
واقف: **وَبَرَزُوا لِللهِ حِيمًا** [إبراهيم: ٢١].
بعد النفخ الثاني في الصور تعود
الأرواح إلى أجسادها، ويحييا الناس،
ويخرجون من قبورهم ويقومون لله رب
العالمين للحشر والحساب. هذه النفخة
الشديدة على الكافرين - كما سيأتي بيانه -
والذي عبر عنه القرآن بـ: **فَإِذَا قُرِئَ فِي الْأَنْوَارِ**
فَذَلِكَ يَوْمُ يُبَيَّنُ ^٨ **وَمِنْ يَوْمِ عَسْرٍ** ^١ **عَلَى الْكَافِرِينَ عَيْنَ**
بَيْنَ [المدثر: ٨-١٠].

والنقر في الناقور هو ما يعبر عنه في
مواضع أخرى بالنفخ في الصور، ولكن
التعبير هنا أشد إيحاءً بشدة الصوت ورنينه؛
كأنه نقر بصوت ويدوي، والصوت الذي
ينقر الآذان أشد وقعاً من الصوت الذي
تسمعه الآذان، ومن ثم يصف اليوم بأنه
عسير على الكافرين» ^(١).

٣. الإنبات من القبور.

بعد أن بينا فيما سبق المراحل التي تسبق
الإنبات من القبور، والتي تمثل في تداعي
الكون والنفخ في الصور، تطالعنا آيات
كريمات تبين الكيفية التي يخرج بها الناس
من قبورهم لأرض المحشر؛ لاستقبال
حسابهم بعد النفخة الثانية، وقد ذكر ذلك
في عدد من الآيات المباركات متخدنا من

(١) في ظلال القرآن /٦ ٣٧٥٥.

يأمر الله تعالى الملك إسرافيل عليه السلام
بالنفخ الأول في الصور فينفتح فيه، فعندها
يهلك جميع الناس والجن والحيوانات على
وجه الأرض، وبذلك تجمع الأرض وتضم
في طياتها وفي بطنهما وعلى ظهرها جميع
أحيائها أمواتاً لا حي فيهم.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه النفخة
المهولة بأكثر من تعبير ووصف منها النفخة
في قوله تعالى: **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ** **نَفَخَةً وَجْدَةً**
[الحاقة: ١٣].

ومنها الصيحة في قوله تعالى: **مَا**
يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَجْدَةً **تَلْخُذُهُمْ وَهُمْ**
مُخْصَمُونَ [يس: ٤٩].

ومنها الراجفة في قوله تعالى: **يَوْمَ تَرْجُفُ**
الْرَّاجِفَةَ ^١ **تَبْعَهَا الرَّاؤَةُ** [النازعات: ٦-٧].

والزجرة في قوله: **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَجْدَةٌ**
[النازعات: ١٣].

ثم يأتي بعدها النفخة الثانية بعدما يشاء
الله بذلك بعد الأربعين، ويصف فيه الحق
تعالى بعث الناس ونشرهم عند سماع
النفخ في الصور في قوله تعالى: **وَنُفِخَ فِي**
الصُّورِ **فَإِذَا هُم مِنَ الْأَجَدَاتِ إِلَى رَبِّهِمْ يَلْسُونُ**
قَالُوا يَوْمَنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا
وَعَدَ الْرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمَرْسُولُونَ ^٥
إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجْدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعُ
لَذِيْنَا مُحْضَرُونَ [يس: ٥١-٥٣].

وقوله تعالى: **فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَجْدَةٌ** ^{١٣}

التشبيه والاستعارة أدوات في التعبير عن ذلك، راسماً لنا صورة مادية تتجسد فيها عناصر الدهشة والإسراع والذهول من هول ما يرون. والناظر في أغلب الموضع التي ذكرت فيها هذه الكيفية يجد أن التعبير القرآني يركز في أكثرها على الكافرين ومنكري البعث.

قال تعالى واصفاً هذا الخروج: ﴿وَقُبْرَخَ فِي الْصُّورِ إِنَّهُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَّا رَبَّهُمْ يَنْسِلُونَ ۝ قَالُوا يَوْمَنَا مَنْ بَعْثَنَا مِنْ مَرْقِدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥١-٥٢]

بعد النفحه الثانية يخرج الناس وينبتون
من قبورهم كما ينبت البقل كما روی عن
أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول
الله صلی الله عليه وسلم: (ما بين النفحتين
أربعون) قال: أربعون يوماً؟ قال: (أبيت)،
قال: أربعون شهراً؟ قال: (أبيت)، قال:
أربعون سنة؟ قال: (أبيت)، قال: (ثم ينزل
الله من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل،
ليس من الإنسان شيء إلا يليلي، إلا عظماً
واحداً، وهو عجب الذنب، ومنه يركب
الخلق يوم القيمة) (١).

وينقسم الناس إلى صنفين: صنف يقول: **«منْ بَعْثَنَا مِنْ مَرْقَدَنَا»** وصنف يقول: **«هُنَّا**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٩٣٥،
كتاب التفسير، باب (يم يفتح في الصور)،
١٦٥/٦.

وَمَا وَعَدَ الرَّحْمَنَ وَصَدَقَ الْمَرْسُوتُ
وَيُخْرِجُونَ حَفَاءً عِرَاءً غَرَّاً لَا يَخَافُونَ
الْأَنْذَرُمُ تَرْهِقُهُمْ ذَلَّةٌ
[القلم: ٤٣]

وهذا ينبيء أنهم يخرجون من القبور في
كرب شديد وهو عظيم مفزع.

وقد تناولت آياتٌ عديدةٌ من القرآن الكريم أحوال الناس وطريقة بعثهم، وصورهم، حركاتهم وقسماتهم بكل دقةٍ تتناسب مع هول ذلك اليوم وشدةٍ، تلك الحركات الدالة على الهول والفزع والاندماج مما رأوه من اضطراباتٍ كونية، وأهواي حلّت بالأرض وبهم بعدبعث، راسمةً صورهم بدقةٍ مما يجعل الملتقي وكأنه يعيشها، مركزةً على مشاهد الكافرين من انكسار أبصارهم وخشوعها ذلاً و هواناً، وحركاتهم التي تثير الفزع والتلخوف، وم مقابلتهم بأحوال المؤمنين آنذاك في بعض المواقف.

وَمِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ فِي بَيَانِ الْخُرُوجِ مِنَ
الْقَبُورِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿فَتُولَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ
الَّذِي أَنْشَأَنَا إِلَيْكُمْ لُكْكَرٌ ۚ ۱ ۖ حَشْعًا أَبْصَرُهُمْ
يَغْرِبُونَ مِنَ الْأَجَدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُسْتَثْرٍ ۚ ۲ ۖ
مُهَمَّطُونَ إِلَى الْأَذَاعِ يَقُولُ الْكُفَّارُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾
[النَّاسُ : ۶-۷]

فالآيات تصور مشهد بعث الكافرين
المنكرين للأخرة من قبورهم وعليهم ثياب
الذل والهوان، مسرعين إلى الداعي رغم

في الآية «كتابٌ عن الذلة والانهزال؛ لأن ذلة الذليل، وعزّة العزيز تظهران في عيونهما»^(٣).

وهذا تصویر لهم في غاية الذل والانكسار، صورةٌ تبيّن حالهم المهين في الآخرة بعد أن كانوا يرتفعون رعوسمهم تكبيراً على المؤمنين في الحياة الدنيا، وللاهتمام باظهار هذه الصورة والتركيز عليها قدم الحال **﴿خَشْتاً﴾** على عامله **﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَبْدَاث﴾** تقديم صورٍ غاية ذل الأ بصار وخشوعها، ولو تأخر الحال، لفاتها هذا التصویر الفني لهيئة الأ بصار^(٤).

وفي «الجراد» مثلٌ في الكثرة والتجمّج، يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض: جاءوا كالجراد متشرٍ في كل مكان؛ لكثره^(٥)، تشبيهٌ يصور حالهم على كثرتهم وتماوجهم وهم حيارى فزعين متشارين هنا وهناك يستر بعضهم ببعضٍ من شدة الخوف.

وهذا التشبيه يتناسب مع آخر السورة نفسها في قولهم في الدنيا: **﴿لَهُنَّ جَمِيعٌ شَنَصُرٌ﴾**، وما أشبه الجيش الذليل المنهزم بالجراد المتشر هنا وهناك ببعضٍ فوق بعض.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/٤٣٢.

(٤) انظر: التقديم والتأخير في القرآن الكريم ص ١٢٧.

(٥) الكشاف ٤/٤٣٢.

أنوفهم. مشهدٌ مختصرٌ سريعٌ، لكنه شاخصٌ متحرّك، مكتمل السمات والحركات، وهو متناسقٌ مع أول السورة: **﴿فَتَرَيْتَ السَّاعَةَ وَأَنْشَقَ الْقَمَر﴾** [القرآن: ١].

ومع الجو والإيقاع العام للسورة، مشهدٌ يصور هذه الجموع الخارجة من قبورها في لحظةٍ واحدةٍ كأنها جرادٌ متشر^(٦).

ومع أن المؤمنين والكافرين يتساون في هذا الخروج من الأجداث، من تملك الهول منهم حينها حتى يؤمّن الله تعالى من يشاء من المؤمنين في أرض المحشر، وهذا ما يدل عليه حذف مفعول الفعل **﴿يَنْتَعِ﴾** لإفادته العموم. وشخص الكافرون بهذا الخطاب؛ تهديداً لهم وتوبیخاً. والداعي هو إسرافيل عليه السلام يدعو الناس ويناديهم للقيام إلى الحساب بعد النفخة الثانية، هذا المشهد المهول المفزع الذي يدل عليه التكير في قوله تعالى: **﴿شَنَقُوكُنُّكُر﴾**، أي: شيء عظيم مهول^(٧).

وقد تعاضدت الفنون البليانية من تشبيهٍ ومجازٍ وكتابيةٍ في رسم صورة هؤلاء المجرمين وهم يقومون للحساب منخذلين مذعورين في ذلك اليوم العصيب؛ إذ يبعثون من قبورهم منكسي رعوسمهم، أبصارهم إلى الأرض لا يرعنها ذلاً وهوأنَا، فالخشوع

(٦) انظر: التصویر الفني في القرآن، سيد قطب ص ٥٩.

(٧) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/٣٢٢.

الَّذِي يُوعَدُونَ ١٤ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَبْدَانِ يَرَاعُوا كَانِبَمْ
إِنْ تُصْبِحُ يُوفَضُونَ ١٥ خَيْشَةً أَبْصَرُهُمْ تَرْهِقُهُمْ ذَلِكَ ذَلِكَ
آتَيْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ١٦ [المعارج: ٤٤-٤٢].

فهذه آياتٌ ترسم صورةٍ تهكميةٍ لهؤلاء الكافرين عند بعثهم للحساب، صورةٌ تتناقض مع ما كانوا عليه في الدنيا حين يسرعون إلى الأنصاب يبعدونها، فجاء التعبير بتصوير حاليهم في الآخرة كذلك؛ ليكون التعبير أشد إيجازاً في السخرية والتهكم.^(٢)

ومثل هذه الآيات أيضاً تطالعنا آياتٌ كريماتٌ في وصف البعث في معرض تسليمة النبي صلى الله عليه وسلم من تكذيب الكافرين بدعوته صلى الله عليه وسلم؛ لتقرر حقيقة البعث، وتتصور حال خروج منكريه حينها، في قوله تعالى: «وَاسْتَعِنْ يَوْمَ يَنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ١٧ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ يَالْعَيْ ذَلِكَ يَوْمُ الْحُرُجِ ١٨ إِنَّا نَعْنَنْ تَحْيِي وَتُبَيِّثُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ١٩ يَوْمَ شَفَقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ يَرَاعُ ذَلِكَ حَسْرٌ عَيْنَتَا يَسِيرٌ» [ق: ٤٤-٤١].

آياتٌ تصف حال الناس يوم ينفح في الصور وينادي فيخرج الناس من قبورهم، ولتهويل هذا اليوم وحال الناس فيه وتفظيعه حذف مفعول «وَاسْتَعِنْ» إيجازاً، والتقدير: واسْتَعِنْ لِأَحْوَالِ الْآخِرَةِ الَّتِي أَخْبَرْتُكَ بِهَا.^(٣)
(٢) انظر: مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب ص ١٨٧.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسى

وأثر التعبير بالانتشار مع جعله اسم فاعل في قوله تعالى: «مُشَتَّشٌ»؛ لإبراز صورة الجراد وشدة اندفاعه عند بداية انتشاره، وتلك صورة المجرمين عند خروجهم «مِنَ الْأَبْدَانِ». وما عمق معنى الذل والهوان المضروب عليهم كونهم «مُنْطَعِينَ إِلَى الْلَّائِعِ» فهم يمشون وجلين بسرعة مشية الخائف المذعور إلى داعيهم، وهم يقولون: «هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ».

وبهذا تواشجت فنون البيان في تقريب صورة بعث الكافرين من قبورهم إلى الأذهان بتشبثهم بالجراد المنتشر وهم أدلة منكسرین عليهم ثياب الفزع والخوف. وفي «إسناد القول» «هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ» إلى الكفار تلویحٌ بأنه على المؤمنين ليس كذلك»^(١).

فهم ليسوا في تلك المرتبة من الفزع والشدة، بل هو يسير عليهم بأمر الله تعالى. وما يدل على عسر ذلك اليوم على الكافرين خاصة دون المؤمنين الموحدين قوله تعالى: «فَإِذَا قَرَفَ الْأَنَوْرُ ٢٠ فَذَلِكَ يَوْمَ يَسِيرُ يَوْمٌ عَسِيرٌ ٢١ عَلَى الْكُفَّارِ عَنِّيْسِيرٌ» [المدثر: ٢٠-٢١].

وإذا انتقلنا إلى موضع آخر نجد أن التعبير القرآني يصور الكافرين عند بعثهم من قبورهم للحساب بسخرية وتهكم في قوله تعالى: «فَذَرْهُمْ يَمْحُضُوا وَلَمْ يَمْحُضُوا هُنَّ يَقْوِيُونَ هُنَّ

(١) روح المعاني، الألوسي ١٤ / ٨٠.

﴿مِيقَتَنَا﴾ دون قوله: **﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتَهُرَ أَجَجِينَ﴾**; للدلالة على أنه «كان في تقدير الله تعالى وحكمه حداً توقت به الدنيا وتنتهي عنده، أو حداً للخالق ينتهي إليه»^(١).

فهو واقعٌ لا محالة ولكن شاءت حكمته تأخيره إلى وقت معلوم.

ومن الآيات التي تصور حالهم وضعفهم ووهانهم بتشبيههم في أرض المحشر بالفراش المبثوث وذلك في قوله تعالى: **﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾** [القارعة: ٤-١].

فالناس حينئذ يكونون كالفراش المتفرق، المنتشر هنا وهناك، يموج بعضهم في بعض من شدة الاضطراب والفزع، فشبه الناس بالفراش المتطاير في كثرتهم، وانتشارهم، وذلك لهم، وضعفهم، واضطرباً^(٢).

وفي مواضع أخرى تأتي لمحات سريعة لأحوال الناس في ذلك اليوم العصيب. وفي المعنى نفسه نجد آيات كريمات أخرى تصور حالهم.

ثانيًا: أحداث في الحشر:

من أحداث اليوم الآخر الحشر وأحوال الخلق فيه حينها، وقد تناولت آيات عديدة من القرآن الكريم طريقة الحشر، وصورهم

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/٦٨٧.

(٢) انظر: الإبداع البياني ص ٤٢٧.

وقوله: **﴿وَقُولُهُ: يَوْمَ يَسْمَعُونَ أَصْحِحَةً بِالْحَقِّ﴾**، والمراد بالحق: الوعد الصادق وهو الحشر، وسمى حقًا، إيطالاً لمزاعم المشركين بأنه افتراءٌ واحتراقٌ، إذ كانوا يسمونه سحراً، ويعدوه خيالاً، فيعلمون آنذاك أن الواقع قد يطابقه، فكان حقًا فإنه قد طابقه الواقع، فكان الإخبار به صدقًا.

إذا كانت الموضع السابقة جاءت ردًا على المشركين في إثبات البعث وكيفية قيامهم من القبور إلى الداعي، فإن هناك ثمة آياتٍ تصور الناس جميعًا عند بعثهم، وهي وإن كانت جوابًا عن سؤال الكافرين عن البعث، إلا أن الجواب كان عامًا في بيان بعث الناس كلهم.

وذلك في قوله تعالى: **﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَتَنَا يَوْمَ يُنَخَّفُ فِي الصُّورِ فَأَنْوَنَ أَفَوَاجًا﴾** [النَّبِيَا: ١٧-١٨].

وأدت هذه الآيات تفصيلاً للإجمال الوارد في أول السورة **﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي هُرَفَ فِيهِ مُخْلِقُهُ﴾** [النَّبِيَا: ٣-١].

فجاء التكرار **﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾** [النَّبِيَا: ٤-٥]. لردعهم وتهديدهم وبيان أنهم سيرونهحقيقة وسيعلمون حينها أنه حق، وأوثر التعبير في الآية بـ **﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ**

فلا تخفي جمالية المقابلة في اختيار الألفاظ المناسبة لكل الحالتين. وحشر المؤمنين والكافرين إلى مصيرهم تكرر في سورة مریم.

ومن صور حشر الكافرين المجرمين (حشرهم زرقاً) كما جاء في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَفَّخُ فِي الصُّورِ وَتَحْشِرُ الْمُجْرِمُونَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۚ يَتَخَافَّوْنَ يَتَهَمُّمُ إِنْ لَيَسْتُمْ إِلَّا عَشَرًا﴾ [مریم: ٨٦-٨٥].

يصور المشهد المبارك للمجرمين وهم يحشرون زرق الوجوه من الكدر والغم أو زرق العيون من شدة العطش أو من العمى، يتخافتون بالحديث لا يرفعون به صوتاً من الرعب والهول والرعب المخيم على ساحة الحشر، وفيما يتخافتون؟ إنهم يحاولون تقدير المدة التي قضوها في الدنيا أو في القبور، فيقولون لم ثبات إلا عشر ليال، ويقول أصواتهم رأياً: ما لبست غير يوم، فيستوي في ذلك التخطيط الناتج عن المفاجأة الجاهلون والعاملون^(٢).

ومن صور حشر الكافرين المجرمين (حشرهم عميّاً على وجوههم) لا كما كانوا يمشون في الدنيا على أرجلهم.

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَيُكَانُ وَصَمًّا مَاؤَهُمْ بِالْأَلِيلِ﴾

^(٢) انظر: التحرير والتونير، ابن عاشور، ١٦، ٣٠٤، ٣٠٦، مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب ص ١٠٤.

في أرض المحشر، بكل دقة وبيان، تلك الطرق الدالة على مكانة كل صنف منهم حيثته، ومن ذلك حشر المتقين والمجرمين في قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ حَشَرُوا الْمُتَقِّنِينَ إِلَى الْأَرْجَنِ وَقَدَا ۖ وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدَا﴾ [مریم: ٨٦-٨٥].

فالأياتان تصوران مشهد حشر المؤمنين والكافرين وحالهم، فالمؤمنون المتقوّن يحشرون وقداً مكرّمين إلى جنة ربهم بعزة وكرامة، أما الكافرون المجرمون فيساقون سوقاً شديداً إلى جهنّم، عطاشاً محرومين من الماء، كالبهائم العطاشاً^(١). وبهذا الأسلوب قابل بين مصير الفريقين بأبلغ بيان. إذ عدى تحشر بـالليل تعظيمًا وتبجيلاً للمؤمنين، وذكر صفة الرحمة الرجن التي خص المؤمنين بها إكرااماً لهم؛ إذ إن لفظ الحشر يوحى بالجمع من أماكن متفرقة وأقطار شاسعة على سبيل القهقر، فجاء لفظ: الرجن مؤذن بأنهم يحشرون إلى من يرحمهم، كما أن لفظ الوفد مشعر بالإكرام والتجليل كما يفرد الوفاد إلى الملوك متتظرین الكرامة عندهم، وفي جانب المجرمين استخدم لفظ السوق الذي فيه إزعاج، ومما زاده تقطيعاً هو تعديته بـالليل تشيعاً لحالهم ومكانهم^(٢).

^(١) انظر: الجامع لإحكام القرآن ١٥٣/١١.

^(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/٣٢، البحر المحيط، أبو حيان ٧/٢٩٨.

فرب العزة سبحانه وتعالى أقسم بنفسه الكريمة أنه يحشر الكافرين منكري البعث، وأمثالهم مع الشياطين ومعبداتهم الباطلة التي كانت تضلهم في الدنيا، وأنه يحضرهم حول جهنم جائين على ركبهم ذلاً و هواناً.

وقد رسم القرآن الكريم في مواضع أخرى متفرقة صفات الناس وقسماتهم في أرض المحشر، وجوههم، أبصارهم، لسانهم، وغيرها، ومما جاء في بيان وجوه الناس بشكل عام تصويرها وهي قد ذلت وخضعت لله تعالى قوله تعالى: ﴿وَعَنِ الْوُجُوهِ لِلْحَيِّ الْقَيُّوبُ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَلَّ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

ومنها أنه حينئذ تبيض وجوه وتسود وجوه في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبَيَّضُ وُجُوهٌ وَتَسْوُدُ وُجُوهٌ فَامَّا الَّذِينَ اسْوَدَتْ وُجُوهُهُمْ اكْفَرُهُمْ بَعْدَ ايمانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٦﴾ وَامَّا الَّذِينَ ابْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَلِيلُوْنَ﴾ [آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧].

فالآيات تصوران مشهدًا من مشاهد القيمة؛ إذ نرى فيه مظهراً عجباً، نرى وجوهاً مبيضة ووجوهاً مسودة وهذا مشهدٌ حسيٌّ، ولكنه منبعث عن تأثير نفسيٍّ، ألقى ظله على هذه الوجوه فايضت، وعلى تلك فاسودت، وهذا وذلك زيادة في العذاب والنعيم وفي

جَهَنَّمُ كُلَّمَا حَبَّتْ زِدَنَهُ سَعِيرًا
ذَلِكَ جَرَاؤُهُمْ يَأْنَهُمْ كَفَرُوا بِعِيَالِنَا وَقَالُوا أَعْذَادًا
كَلَّا عِظَمًا وَرَفَعَتْ أَعْنَاءَ لِمَبْعُوتُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾
[الإسراء: ٩٨-٩٧].

وغيرها من الآيات. آيات تصور الكافرين المجرمين وهو يحشرون بذلٍ وهوانٍ على وجوههم عمياً لا يرون، وبكمًا لا يتكلمون، وصمًا لا يسمعون، يحبس أولهم على آخرهم، فيساقون إلى النار مجتمعين. وحشر الكافر أعمى يمشي على وجهه جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيمة؟ قال: (اليس الذي أمساه على رجليه في الدنيا قادرًا على أن يمشي على وجهه يوم القيمة؟) ^(١).

ومن صور حشر الكافرين المجرمين (حشرهم مع أوثانهم وشياطينهم وهم جائون على الركب) وذلك في قوله تعالى: ﴿فَوَرِيكُلَّهُ حَشِرَنَهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُرَّ لِتَحْضِيرَتِهِمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ حِشِيشًا ﴿١٦﴾ ثُمَّ لِتَزْعِجُهُمْ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيْمَمْ أَشَدَّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِنْنَا﴾ [مريم: ٦٩-٦٨].

وقوله تعالى: ﴿خَشِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَجُهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْنُهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِّمِ﴾ [الصفات: ٢٣-٢٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٦٥٢٣، كتاب الرفق، باب كيف الحشر، ١٠٩/٨.

هذه المقابلة بين الفريقين التي أظهرت البون الشاسع بينهما، فالمؤمنون وجوههم مشرقةٌ مبتسمةٌ، وهذا يدل على الأمان والطمأنينة، والكافرون وجوههم عابسةٌ مظلمةٌ، وهذا يدل على خوفهم وذعرهم ويأسهم، فهم فريقان مختلفان، وهذا ما يدل عليه التكثير المستفاد منه التنويع في **﴿وجوه﴾**.

وفي الآية تكريم عظيم من الله لعباده المؤمنين في أرض المحشر يوم القيمة، فهو يزيد لهم الفضل والنعم بعد تبیض وجههم في أرض المحشر بالنظر إلى وجهه الكريم عياناً كما ترى الشمس في النهار إذا كان الجو صحيحاً كما دلت على ذلك النصوص التي وردت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في رؤية المؤمنين لربهم يوم القيمة. وهكذا رسم القرآن الكريم في الآيات السابقة بمجموعها صورة تقابلية بين بياض ونضارة وجوه المؤمنين، وسود وكلاحة وقتمة وجوه الكافرين، وفي الجمع والموازنة بينها يتجلى البون الشاسع بين منزلة المؤمنين والكافرين في أرض المحشر، ففريق المؤمنين يحشرون في أجمل صورة وأكرمها، وقد ملأت الطمأنينة والفرحة نفوسهم -فالبياض علامه لهم يوم القيمة- فوجوههم بيضاء مشرقة ضاحكة مستبشرة إلى ربها ناظرة.

التحقير والتکريم^(١). وخص الوجه بالذكر دون سائر الجسد؛ لأنه أول ما يرى من الإنسان، ولأنه أشرف الأعضاء في الجسد. ولهذا نرى التركيز عليه في وجوه الكافرين خاصة مثل قوله تعالى: **﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةَ تَرَى الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ وَجْهُهُمْ مُسْوَدَةٌ الَّتِيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَوْئِلُ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾** [الزمر: ٦٠].

وفي سورة عبس نعain صفات أخرى في الوجه، وجوه المؤمنين ووجوه الكافرين، زاد فيها على بياض الوجه النور والإشراق والضحك والاستبشران مما دل على الأمان والطمأنينة ذلك في قوله تعالى: **﴿وَجْهٌ بَوْمَيْلٌ شَنِيْرَةٌ ﴿٢٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُشْتَبِّشَةٌ﴾** [عبس: ٣٨-٣٩].

وأضاف إلى وجوه الكافرين المسودة غباراً دالاً على الكآبة واليأس والخوف في قوله تعالى: **﴿وَجْهٌ بَوْمَيْلٌ عَيْنَاهَا عَبْرَةٌ ﴿٤٠﴾ قَذَّرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَّارُ الْفَجُورُ﴾** [عبس: ٤٠-٤٢].

وفي آيات أخرى نرى تقابلًا بين وجوه المؤمنين ووجوه الكافرين من حيث النظر إليه سبحانه وتعالى وعدمه في قوله: **﴿وَجْهٌ بَوْمَيْلٌ تَأْنِيْرَةٌ ﴿٤٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٤٣﴾ وَجْهٌ بَوْمَيْلٌ بَاسِرَةٌ ﴿٤٤﴾ كَذَنَ أَنْ يَقْلِبَهَا فَاقْرَأْهُ﴾** [القيامة: ٢٢-٢٥].

(١) انظر: مشاهد القيمة في القرآن، سيد قطب. ٢٠٣

كَانُوكُمْ إِن تُصْوِيْرُوهُنْ [٤٣] حَشِيشَةً أَبْصَرُهُنْ تَرْهُقُهُنْ ذَلَّةً
ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّتِي كَانُوا يُوعَدُونَ [٤٤-٤٢] (المعارج: ٤٢-٤٤).

وقد سبق بيان هذه الآيات.

وقد صور القرآن الكريم حالهم وملابسهم ووجوههم معًا، حالهم ذليل، وذلك في قوله تعالى: «يَوْمَ تَبَدَّلُ الْأَرْضُ
عَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرِزَوا إِلَيْهِ الْوَاحِدُ الْهَمَّادُ
وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّغَرَّبِينَ فِي
الْأَضْفَادِ [٤٥] سَرَابِيْهِمْ مِّنْ قَطْرَانٍ وَتَقْنَشِيْ
وَجُوْهِهِمْ أَثَارٌ [٤٦] لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلُّ نَفْسٍ مَا
كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ [٤٧]» (إبراهيم: ٤١-٥١).

وصورهم وهم صامتون لا يتكملون في قوله تعالى: «هَذَا يَوْمٌ لَا يَطْقُونَ [٤٨] وَلَا يُؤْذَنُ
لَهُمْ فَمَتَّذِلُوْنَ [٤٩] وَلِلَّهِ يُؤْمِنُ لِلشَّكِّيْنَ [٥٠] هَذَا
يَوْمُ النَّفْصِلِ جَمِيْنَكُرْ وَالْأَوَّلَيْنَ [٥١] فَإِنْ كَانَ لِكُرْكِيدْ
فِيْكِيدُوْنَ [٥٢]» (المرسلات: ٣٥-٣٩).

ومنه أيضًا قوله تعالى: «رَبِّ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَنْكُونُ مِنْ خَطَابِا [٥٣]
يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفَّا لَا يَنْكُونُ إِلَّا
مِنْ أَذْنِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ وَقَالَ صَوَابًا [٥٤] ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ
فَمَنْ شَاءَ أَخْدَى إِلَى رَبِّهِ مَنَابًا [٥٥] إِنَّا أَنذَرْنَكُمْ
عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْتَرَى الرَّزْمَ مَا قَدَّمْتُ يَدَاهُ وَيَقُولُ
الْكَافِرُ يَأْتِيَنِي كُتُبُ تُرَبَّا [٥٦]» (النَّبِيَا: ٣٧-٤٠).

مشهد يصور حال الهلع والذعر مما يرى، والندم على ما قدم، عندما يرى قضاء الله تعالى في البهائم قبل حسابهم فيتمنى أن

بخلاف الكافرين الذين يحشرون سود الوجه في أبغض صورة وأذلها، فوجوههم سوداء مظلمة عليهما غبرة ترهقها قترة لا تنظر إليه سبحانه بل هم في النار خالدون.

ومما جاء في وصف الكافرين في أرض المحشر قوله تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذ
الْمَجْرُورُونَ نَاكِشُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَيْفِهِمْ
رَيْتَنَا أَبْصَرَنَا وَسَيْعَنَا فَلَرَعَقْنَا فَلَرَعَقْنَا نَعْمَلْ صَلِيْحًا إِنَّا
مُوقْنُونَ [٥٧]» (السجدة: ١٢).

آية ترسم صورة المجرمين وهو منكسو الرءوس يوم القيمة، لا يرفعونها من عظيم الخزي والذلة الذي يشعرون، ويحكى بعد ذلك قولهم الدال على إقرارهم بعد أن شاهدوا بأعينهم وسمعوا بأذانهم بأن الآخرة حق وما جاء به رسول الله عليهم الصلاة والسلام حق، فيتمنون أن يعيدهم الله إلى الدنيا لتكون الفرصة الأخيرة لهم، ولكن بعد فوات الأوان.

وقد صور القرآن الكريم أبصار الكافرين في أرض المحشر، صورها وهي ذليلة مهانة، ومما جاء في ذلك قوله تعالى: «فَقُولَّ
عَنْهُمْ يَوْمَ يَسْتَدْعُ الْدَّاعِ إِلَى شَفَّ وَلَكَشِيرِ [٥٨]
خَشْعَا أَبْصَرُهُ يَتَرَجَّهُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانُوكُمْ جَرَادُ
مُشَيْشِرِ [٥٩] مُهَطِّعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكُفَّارُ هَذَا
يَوْمَ عَيْرِ [٦٠]» (القمر: ٦-٨).

وقوله تعالى: «فَذَرُوهُ يَمْتُصُوا وَلَمْبَوْحَى يَلْكُوا
يَوْمَرُ الَّتِي يُوعَدُونَ [٦١] يَوْمَ يَغْرِبُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَّا

المرء يوم القيمة على طريقة الترقى في القرب والمحبة؛ وبالغة في وصف الهول والفوز الذي يعيشها، فـ«ذكر فرار الإنسان من أحبابه، ورثبهم ترتيباً في الحنو والشفقة، فبدأ بالأقل، وختم بالأكثر؛ لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه من كل ما تقدم ذكره، وإنما يفر منهم؛ لاشغاله بنفسه»^(٢).

وقد اقتضى السياق هذا الترتيب، في حين نجد أنه في موضع آخر بدأ بما انتهى منه هنا وذلك في قوله تعالى: «وَلَا يَسْتَعْلُ حَيْثُ حِسْنًا ١١ يَصْرُونَهُمْ يُودُ الْجَنُومُ لَوْيَقْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ لِمَ يَنْهَا وَلَيَجِدُهُمْ ١٢ وَفَصِيلَاتٍ إِلَيْهِ تَوَعِيدٌ ١٣ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَيْمَانٌ ١٤ يُنْجِي ١٥» [المعارج: ١٠-١٤].

ومما لا شك فيه أن سبب تقديم الأخ على الأم والأب والصاحبة والابن في سورة عبس، وتقدم الابن على الصاحبة والأخ والفصيلة (الأم) في سورة المعارج، كان لأمرٍ خاصٍ يقتضيه السياق، جعل النظم في الترتيب مغايراً في الموضعين، وهو يقوم على اختيار معنوي جمالي خاصٍ، ويسمى لتصوّر معينٍ، ويتحقق كل شروط الفن البلاغي.

وبسبب ذلك أن المقام في سورة عبس مقام فرارٍ وهربٍ من الأحبة انشغالاً بالنفس

يكون تراباً كالبهائم لسوء ما قدمت يداه من خزيٍ يتظره حساباً وجزاءً.

وإذا انتقلنا إلى موطن آخر نجد آيات تصور الهول الذي يعم كل إنسان في أرض المحشر حتى يفصله عن محطيه ويجعله يفر من كل قريبٍ وحبيبٍ له في الدنيا، وذلك في قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَتِ الْأَسْكَانَةُ ١٧ يَوْمَ يَعْرَلُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ١٨ وَأَيْدِيهِ ١٩ وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ ٢٠ لَكِلَّ أَمْرٍ يَنْهَا يَوْمَ يُزَيْدَ شَأْنَ يَنْهَا ٢١ وَجُوهٌ يَوْمَ يُزَيْدَ عَلَيْهَا ٢٢ شَفَرَةٌ ٢٣ ضَاحِكَةٌ مُشْتَبِرَةٌ ٢٤ وَجُوْهَرٌ يَوْمَ يُزَيْدَ عَلَيْهَا ٢٥ عَرَةٌ ٢٦ تَرْهُقُهَا قَدْرَةٌ ٢٧ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفَّارُ الْمُجْرُمُونَ ٢٨».

[عبس: ٤٢-٣٣].

مشهدٌ يصف أهوال القيمة التي تصل إلى مشاعر الإنسان الوجدانية المرتبطة بأقرب الناس إليه، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم هول ذلك اليوم فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (يُحشر الناس يوم القيمة حفاء عراة غرلاً) قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض) ^(١) لأن ^(٢) لَكِلَّ أَمْرٍ يَنْهَا يَوْمَ يُزَيْدَ شَأْنَ يَنْهَا، فالكل مشغول بأمره ولا يدرى عن حال غيره شيئاً. ويلاحظ أنه تدرج في ذكر من يفر منهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٨٥٩، كتاب الجنة وصفة نعيها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر، ٤/٢١٩٤.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي الكلبي .٤٥٤/٢

واتساعها في قلب الكافر، وتفاقم التشتت الذي يعتريه، وهذا ما يرمز إليه الانتقال من الأدنى إلى الأبعد عاطفياً ومكانياً، ويبدل أيضاً على العجز عن طلب المعين، والاضطراب في التماسه اضطراباً شديداً باتساع دائرة البحث عنه درجةً بعد درجةً حتى تشمل كل الموجودات في ذلك اليوم العصيب^(١).

وثمة أموراً أخرى اقتضت أن يكون الترتيب مغايراً في سورة المعارج، منها أن المفتدي هو (المجرم) وليس إنساناً اعتيادياً، والمجرم مستعدٌ لفعل أي شيء؛ للنجاة بنفسه ولو كان الفداء بأحب وأقرب من لديه؛ ليضعه مكانه في النار، بل لا يهمه لو افتدى بالناس كلهم بذنبه، ومنها أن البدء بأقرب الناس يدل على هول العذاب فوق التصور مما يجعله يفتدي هكذا، ومنها أنه ذكر ما يناسب هذه القطعة بالافتداء وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْعُلُ حَمِيمٌ﴾ [المعارج: ١٠].

والحميم: القريب، فبدأ بالأقرب فالبعد^(٢).

يوم الفزع الأكبر، والإنسان يفر من الأبعد أو لا ثم يتنهى بالصدق الناس به، فجاء الترقى من الأدنى إلى الأعلى؛ لأنه يناسب فكرة الفرار والنكوص عن مساعدة أقرب الأقربين - انشغالاً بالنفس - من شدة الهول ولذلك تأخر ذكر البنين؛ لأنه لو بدأ بذكرهم، لما احتاج بعد ذلك إلى ذكر غيرهم، ولأن الوصف بالتخلي عن نجدة الأبناء، والانصراف عنهم هو أقصى ما يمكن أن يصل إليه التعبير عن مدى انشغال الإنسان بهمومه الخاصة ومشكلاته الذاتية عن كل ما حوله، فهذا وصفٌ لما يتتاب المرء من الذاتية المطلقة والاستغراق المطلق بالقلق الشخصي على المصير في ذلك اليوم العصيب، في حين نرى أن السياق في سورة المعارج غيره في سورة عبس؛ إذ يؤتى بالمجرم؛ ليلقى جزاء عمله في النار.

فالمقام مقام البحث عن المنجد والمعين والمفتدي، والمجرم يود النجاة بكل سبيل ولو أدى ذلك إلى أن يبدأ بأقرب الناس إليه، فكان الترتيب على سبيل التدلي فبدأ بالأقرب كما تعول عليه النفس، فالابن فالزوجة، فالأخ فالعشيرة، ثم من في الأرض جميماً.

وهذا الترتيب فضلاً عن أنه تعبيرٌ يناسب من حيث تدرج حركة الكافر النفسية في ذلك اليوم، فإنه تعبيرٌ عن اشتعال الحيرة

(١) انظر: بлагة العطف في القرآن الكريم، عفت الشرقاوي ص ١٠٥ - ١١٠.

(٢) انظر: الجملة العربية تأليفها وأقسامها، فاضل صالح السامرائي ص ٤٧ - ٤٨.

ثالثاً: أحداث عند الحساب:

عرض القرآن الكريم لمشاهد الحساب وأحداثه بدءاً من الميزان الذي توزن فيه أعمال المرء كلها، ومن ثم تطوير الصحف والعرض، انتهاءً بندم الكافرين والمنافقين وجدالهم بعد هذه الأحداث الفاصلة التي تنتهي بأمرهم إلى الخلود في نار جهنم.

١. الميزان.

يُنصب يوم القيمة ميزان حقيقى كما قال ابن عباس رضي الله عنهم: «له لسان وكفتان لحساب الخلق على ما قدموه من أعمال صالحة وطالحة، فيؤتى بالأعمال الصالحة على صورة حسنة جميلة، والأعمال السيئة على صورة قبيحة، فتوضع كل واحدة منها في كفة الميزان، وعلى هذا تكون صحيحة المرء بعدها»^(١).

ومن المواطن التي جاء فيها ذكر الميزان قوله تعالى: «وَقَسْطُ الْمَوَازِنِ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِنْ قَالَ حَسْكَنَ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا يَهُمَا وَكَفَنَ يَنَا حَسْبَنِينَ» [الأنياء: ٤٧].

تصف الآية الكريمة القضاء العادل في اليوم الآخر بأنه يوازن بين أعمال العباد موازنة دقيقة فيحاسب كلا على أعماله، والمعنى: أن الموازين يوم القيمة عدل لا

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/١٨٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٢/١٠٣.

يظلم بها أحد شيئاً.

قال الحافظ ابن كثير رحمة الله: و«الأكثر يعني: من العلماء - على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جمع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه»^(٢).

ووصف الله تعالى الموازين بالقسط؛ لأن الميزان قد يكون مستقيماً وقد يكون بخلافه، فحين أن تلك الموازين تجري على حد العدل والقسط، وأكد ذلك بقوله: «فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً».

وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أن أعمال العباد توزن في اليوم الآخر من حسنات أو سيئات، فمن ثقلت موازيته بأن رجحت حسناته على سيئاته فاز ودخل الجنة برحمته تعالى، ومن رجحت سيئاته على حسناته هلك ودخل النار بعدله تعالى، وإن كان المؤمنون على تفاوت درجاتهم في الأعمال هم من أهل الجنة، وإن عذبوا على بعض ذنوبهم بمقدارها.

وفي وزن أعمال العباد جاءت آيات عد، منها قوله تعالى: «فَلَمَّا تَقْرَئَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ يَنْهَا يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ»^(٣) فـ«مَنْ ثَقَلَ مَوَازِنُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(٤) وـ«مَنْ حَفَّتْ مَوَازِنُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ حَسِروا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَلِيلُونَ»^(٥) تلخص وجوبهم النار وهم فيها كالمحرون» [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣]

(٢) تفسير القرآن العظيم ٣٤٥ / ٥.

دقة الميزان في وزنه حتى الذرة المتناهية في الصغر قسطاً وعدلاً من الله تعالى، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُرَبَّ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْنَاً لِتُرَوَّا أَعْمَلُهُمْ ⑥ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا شَرًّا ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨-٦].

فهذه آيات تصف دقة الميزان الرياني في اليوم الآخر، الناس يمضون أشناً متفرقين بحسب أعمالهم ﴿لِتُرَوَّا أَعْمَلُهُمْ﴾ خيراً كانت أم شراً، يرونها مكتوبة في صحفتهم، فيعطون كتبهم بحسب أعمالهم يمينهم أو شمالهم، ويرونهما وهي توزن في الميزان.

وهذا ما يدل عليه التفريع بعدها: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا ⑦ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا ⑧﴾ انتقالاً للتريغيب والترهيب بعد الفراغ من إثبات البعث والجزاء، والتفریع قاضٍ بأن هذا يكون عقب ما يصدر الناس أشناً^(٢).

وي بعض الخلق لا يقيم لهم الرحمن وزناً في اليوم الآخر، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَيِّمُ إِلَيْكُمْ بِالآخِرَةِ أَعْدَلُ ⑩ الَّذِينَ حَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْأَجْوَهُ الدُّنْيَا وَمَمْ يَحْسُبُونَ أَنَّهُمْ يَحْسُنُونَ ⑪ صُنْعًا ⑫ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِيَوْمِ رَبِيعَهُ وَلَقَائِهِ فَعِظَتْ أَعْمَلُهُمْ فَلَا تُقْيِمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ⑬﴾

[الكهف: ١٠٣-١٠٥].

(٢) المصدر السابق ٤٩٤ / ٣٠

. [١٠٤]

وقوله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَ الْحِقْرِ فَمَنْ تَقْلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ⑯ وَمَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ⑰﴾ [الأعراف: ٩-٨].

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا مَاتَ تَقْلَتْ مَوَازِينُهُ ⑱ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ⑲ وَمَمَّا مَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ ⑳ فَأَمْمَةٌ هَمَّا وَيَةٌ ⑻ وَمَا أَدْرَكَ مَاهِيَةَ ⑼ نَارٌ حَمِيمَةٌ ⑽﴾ [القارعة: ٦-١١].

فجاءت الآيات الكريمة؛ لتعرض وزن أعمال الناس في الميزان، وتفصل في حالهم إلى حال حسنة لأهل السعادة المعبر عنهم بـ ﴿فَلَمَّا مَاتَ تَقْلَتْ مَوَازِينُهُ ⑱ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾، وحال فطيبة لأهل الشقاء المعبر عنهم بـ ﴿وَمَمَّا مَنْ خَفَتْ مَوَازِينُهُ ⑳ فَأَمْمَةٌ هَمَّا وَيَةٌ ⑻ وَمَا أَدْرَكَ مَاهِيَةَ ⑼ نَارٌ حَمِيمَةٌ ⑽﴾^(١).

فكان في التفصيل مقابلة بين الصفين الشقي منهم والسعيد، وبيان منزل كل فريق منهم، فالسعادة ترجع حسناتهم على سيئاتهم، وتشغل في الميزان وتكون خاتمتهم إلى الجنان، أما الأشقياء الذين لا تقوم بهم حسناتهم وترجع سيئاتهم فيكون مآلهم إلى النار.

وفي مواضع أخرى يصور القرآن الكريم

(١) انظر: التحرير والتنوير ٣٠ / ١٣٥

ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَأَسْلَكُوهُ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ
بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٢٣﴾ وَلَا يَعْضُلُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِنِ
فَلَئِنْ لَّهُ أَيُّومٌ هَمَّا حِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مَنْ غَشِّيَنِ
لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا لَخْطَقُوْنَ ﴿٢٥﴾ [الحاقة: ١٨-٣٧].

فهذه آيات تصف الحساب وموقف الناس عنده؛ إذ ينقسمون إلى قسمين، منهم من يؤتى كتابه بيمينه، فيسعد أيماء سعادة، ويفرح فرحاً كبيراً، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله، فيشقى أيماء شقاوة، ويحزن حزناً عميقاً، فريقان مختلفان في موقف واحد، يصورهما القرآن أدق تصويراً.

ومن مشاهد تطاير الصحف وإثبات الكتاب في اليمين أو الشمال أيضاً قوله تعالى: **﴿فَإِمَّا مَنْ أُوفِيَ كِتَبَهُ بِيَمِينِهِ﴾** ﴿٧﴾ **﴿فَسَوْقَ مُحَاجَسَتْ حَسَابًا بِيَمِينِهِ﴾** ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ
مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَإِمَّا مَنْ أُوفِيَ كِتَبَهُ وَرَأَهُ ظَهِيرَةً ﴿١٠﴾ فَسَوْقَ
يَدْعُوا ثُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَى سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ
مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ طَنَّ أَنْ يَمْحُورَ ﴿١٤﴾ بَلْ إِنْ رَبَّهُ كَانَ
يَدْهُ صَبِيرًا ﴿١٥﴾ [الأشقاق: ٧-١٥].

جاءت هذه الآيات تفصيلاً للإجمال في قوله تعالى في أول السورة: **﴿يَأَيُّهَا الْإِنْسَنُ إِذْكُرْ كَوْحًا إِلَى رَبِّكَ كَذَّا فَلَقِيهِ﴾**، وهي تقابل بين صنفي الناس آنذاك، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه وهو السعيد، ومنهم من يؤتى كتابه بشماله وهو الشقي. والحساب اليسير في الآية كناية عن عدم المواجهة على سيناته، بل هو عرض فقط يذكر فيه

وقد جاء بيان هذه الآيات الكريمة في السنة النبوية الشريفة فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيمة، لا يزن عند الله جناح بعوضة، وقال: اقرعوا: **﴿فَلَا تُقْبِلُنَّ هُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَرَبَّنَا﴾**)^(١).

٢. تطاير الصحف.

طالعنا آيات في التعبير القرآني تعرض لمشاهد من الحساب، وهي تطاير الصحف إلى أصحابها، تلك الصحف التي يكتب فيها ما قدم ابن آدم في حياته، وقد جاءت هذه المشاهد؛ لتقابل بين صنفين من الناس؛ صنف يؤتى كتابه بيمينه، وأخر يؤتى كتابه بشماله، وحال كل واحد منها بعدها.

ومن هذه المشاهد ما جاء في قوله تعالى: **﴿بِوَمِيلٍ تُعَرَّضُونَ لَا تَخْفَنَ مِنْكُمْ خَافِيَةً﴾** ﴿١٦﴾ **﴿فَإِمَّا مَنْ أُوفِيَ كِتَبَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَذُوْمَ أَفْرَمَ رَكِيْبَهُ**
إِنِّي ظَنَّتُ أَنِّي مُلِيقٌ حَسَابَيَّةَ﴾ ﴿١٧﴾ **فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَّهُ**
فِي جَنَّةٍ عَالِسَهُ **﴿فَلَطَوْفَهَا دَائِيَّهُ﴾** ﴿١٨﴾ **كُلُّهُ**
وَأَشْرَوْهُ هَيْنِيَا بِمَا أَسْلَقْتُهُ فِي الْأَيَّامِ الْمُلَايَةِ﴾ ﴿١٩﴾
وَإِمَّا مَنْ أُوفِيَ كِتَبَهُ بِشَمَالِهِ **فَيَقُولُ يَأَيُّهَا لَرَأَتِ كِتَبَهُ**
وَلَرَأَتِي أَذِيرَ مَا حَسَابَيَّهُ **﴿يَأَيُّهَا كَاتِ الْفَاضِيَّهَ﴾** ﴿٢٠﴾
مَا أَغْفَقَ عَنِي مَالِيَّهُ **﴿هَلَكَ عَنِي سُلْطَانِيَّهُ﴾** **﴿هَذُوْهُ فَقْلُوَهُ** **﴿فَلِلْعَجِيمِ سَلُوَهُ﴾** **﴿هَذُوْهُ فِي سَلِسَلَهُ**

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٤٧٢٩، كتاب التفسير، باب (أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه)، ٩٣ / ٦.

**أُولَئِكَ كُتُبُهُ يَسِّمِيهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ
كُتُبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ قَسِيلًا** (٧٦) وَمَن
كَاتَ فِي هَذِهِ أَعْمَنَ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَنَ وَأَضَلُّ
سَيِّلًا) [الإسراء: ٧١-٧١].

٣. الشهادة على الخلق.

جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تبين أن هناك الكثير من الشهود على الإنسان في اليوم الآخر لإقامة الحجة عليه وتكون دليلاً وشاهدًا على ما فعله في الحياة الدنيا، وربنا الرحمن تعالى لا يحتاج إلى من يخبره عن عباده أو يشهد عليهم بما فعلوه، فهو العالم تعالى بهم وبأعمالهم كما حكى عن نفسه العالية في قوله تعالى: **«وَمَا تَكُونُ فِي سَلَّمٍ
وَمَا تَنْلَا مِنْهُ مِنْ قُرْمَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا
كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفْحِصُونَ فِيهِ وَمَا يَزِّبُ
عَنْ رَيْكَ مِنْ مِشْقَالٍ ذَرَقَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ
وَلَا أَصْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ»** [يونس: ٦٦].

وقوله تعالى: **«وَمَا نَرِثَكَ بَعْدَ الَّذِي نَوَدْتُمْ
أَوْ نَوَيْتُكَ فَإِلَيْنَا تُرْجَعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا
يَفْعَلُونَ»** [يونس: ٤٦].

وشهادة الرب تعالى على الإنسان في الدنيا تكفي على ابن آدم فهو أعظم شهيد وأجل شهيد تعالى، إلا أنه سبحانه من كمال عدله وإعذارًا لهم أقام عليهم الشهود بعد شهادته عليهم، ونوعهم وكثرةهم؛ لإلزامهم الحجة والبينة، وهولاء الشهود كثراً كما

تعالى المؤمن بما عمل في الدنيا^(١). ثم يتجاوز عنه، فهو حساب قليل يسير كما دل عليه التنكير في قوله تعالى: **«حَسَابًا
يَسِيرًا»**. ويدل عليه أيضًا ما روي عن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من نوتش الحساب عذب) قالت: قلت: أليس يقول الله تعالى: **«فَسَوْفَ يُحَاسَّبُ حَسَابًا يَسِيرًا»** قال صلى الله عليه وسلم: (ذلك العرض)^(٢)، وفي رواية أخرى: (ليس ذلك الحساب! إنما ذلك العرض، من نوتش الحساب يوم القيمة عذب)^(٣).

وبعد هذا العرض ينصرف إلى بيته وأهله في الجنة مسروراً فرحاً. أما الشقي فسيأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره؛ لأن «أيمانهم تغل إلى أنعناتهم، وتكون شمائلهم وراء ظهورهم»^(٤).

وما أن يقرأ كتابه حتى يدعوه على نفسه بالهلاك لسوء مصيره؛ إذ سيدخل جهنم. ومما جاء في بيان الصحف وتطايرها أيضًا قوله: **«يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنْسٍ بِإِيمَنِهِمْ فَمَنْ**

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠ / ٢٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من نوتش الحساب عذب، رقم ٦١٧١، ٥ / ٢٣٩٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، رقم ٢٨٧٦، كتاب صفة القيمة والجنة والنار، باب إثبات الحساب، ٤ / ٢٢٠٤.

(٤) معاني القرآن ٣ / ٢٥٠.

شهدوهم وحفظوا عليهم ما كانوا يعملون في الدنيا صغيره وكبيرة. ومنهم الكتاب الذي سجل كل صغيرة وكبيرة عليهم قال تعالى: ﴿وَرَبِّي كُلُّ أَنْتَ جَاهِشَةٌ كُلُّ أَنْتَ تُذَعَّنُ إِلَى كَتَبِنَا الْيَوْمَ بِجُزْءِ مَا كُلُّمُتُمْ ﴾١٨﴾ هَذَا كَتَبُنَا يَطْقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كَانَ نَسْنَسُ مَا كُتُّرْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٩-٢٨].

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَرِّ لِلْجَهَالِ وَرَبِّي الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَسْرَتُهُمْ فَلَمْ تَفَادُرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [٤٦] وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفَّا لَقَدْ جَسَّمُوا كَمَا خَلَقْنَاهُمْ أَوْلَ مَرَّةَ بَلْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ بَغَّلُوكُمْ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ [٤٧] وَوُضَعَ الْكِتَبُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشَفِّقِينَ مَعَافِيهِ وَيَقُولُونَ يَوْمَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَخْصَنَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبِّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧-٤٩].

آيات تعرض لساحة العرض والحساب، وقد تجمعت فيها الخلاائق كلها وتحشدت، وقد جثوا على الركب متميزين أمة أمة يرتقبون الحساب، ويواجهون بالجزاء وكل شيء قد كتب واستنسخ في كتاب دقيق ناطق الذي لم يترك عملاً صغيراً أو كبيراً إلا وأحاط به.

ومن الشهدود على الخلق أيضاً الأنبياء والرسل كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُشْعَالَ ذَرَقَ وَإِنَّكَ حَسَنَةً يَضُدُّونَهَا وَيَوْمَتِ يَوْمَهُ أَبْرَأُ عَظِيمًا﴾ [١٩] فَكَيْفَ

ذكرنا، أولهم ربنا الرحمن إذ يذكر الإنسان بما قدم في الدنيا ويقول له: ألم تفعل كذا وكذا؟ - كما جاء في الصحيح-. والأيات في شهادته تعالى على العباد كثيرة. ذكرنا بعضها في هذه الفقرة ومع هذا، فالإنسان بجحوده ينكر وينكر، فيزيد الله تعالى له الشهدود من مخلوقاته عليه حكماً وعدلاً - كما سيأتي -.

ومن الشهدود على الخلق أيضاً بعد شهادة الله تعالى الملائكة بأصنافها كما في قوله تعالى: ﴿إِذَا يَأْتِيَ الْمَلَائِكَةَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الْشَّمَائِلِ قَيْدًا﴾ [١٧] تَأْلِفُ مِنْ قَوْلِ إِلَّا الَّذِي يَرِبِّ عَيْدَهُ﴾ [١٨] وَجَاءَتْ سَكَرَةَ الْمَوْتِ يَأْلِفُ ذَلِكَ مَا كَتَبَ مِنْهُ تَجْبِيدٌ﴾ [١٩] وَقَبْعَةَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [٢٠] وَجَاءَتْ كُلُّ قَسْبٍ مَعَهَا سَلِيقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [٢١-٢٢] .

أي: ملك يسوقه إلى المحشر وملك يشهد عليه بأعماله في الدنيا، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تَكْلِبُونَ بِالَّذِينَ﴾ [١] وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِتَفْظِيلِنَ﴾ [٢] كَرَامًا كَبِيرَينَ﴾ [٣] يَعْلَمُونَ مَا فَعَلُونَ﴾ [٤] . [الأنفطار: ١٢-٩].

أي: ملائكة يكتبون ما كتتم تعملون في الدنيا غير مضيعينه، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمَ مِنْ أَفَقَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [٥] أَوْلَئِكَ يَعْرِضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [٦] . [هود: ١٨].

ومن هؤلاء الأشهاد الملائكة الذين

ومن الشهود على الخلق أيضاً أمة محمد؛ إذ يجيء بها شاهدة على الأمم؛ لعدلها بعد أن تشهد الرسول على أقوالهم، لا تجد هذه الأمم حيتند إلا تكذيب رسليها وإنكار تأديتهم للرسالة كما كانوا يكذبونهم في الدنيا، فتقوم الأمة الوسط أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شَهَادَةً عَلَى النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿لَا يُكُونُ الرَّسُولُ شَهِيدًا لِبَنْكُوكَ وَلَا كُنُوا شَهَادَةً عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

هذه الشهادة التي تأتي بعد تكذيب الأمم لرسليها كما سبق وقد جاء بيان ذلك صراحة في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى هل بلغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي، فيقول نوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد صلى الله عليه وسلم وأمته، فتشهد أنه قد بلغ، وهو قوله - جل ذكره - ﴿وَكَذَّلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شَهَادَةً عَلَى النَّاسِ﴾ والوسط: العدل) ^(١).

ومن الشهود على الخلق أيضاً الأرض،

آخرجه البخاري في صحيحه، رقم ٣٣٣٩، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: (إنا أرسلنا نوحًا إلى قومه)، ١٣٤ / ٤.

إذا جئتنا من كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا إِنَّكَ عَلَى هُنْوَانِ شَهِيدًا ^(٢) ٰ يَوْمَئِذٍ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَمُوا الرَّسُولَ لَوْ شَوَّهَ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكُنُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ^(٣) [النساء: ٤٢-٤٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ فَظَاهَرَ بَيْنَهُمْ بِالْقُسْطِ وَمَنْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧].

يعني: إذا جاء الرسول في اليوم الآخر قضي بيهم وسماه الله تعالى شهيداً كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْنَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

﴿وَيَوْمَ يَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجَئَنَا إِنَّكَ شَهِيدًا عَلَى هُنْوَانِ وَرَزَّاكَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبَيَّنَ لَكُلُّ شَيْءٍ وَهُدَى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وغيرها من الآيات. والأيات السابقات تدل بجموعها أنه تعالى في اليوم الآخر سيجمع الخلائق ويجيء بكل أمة ليشهد عليهم رسليها بما بلغ وبما أجابته به أمته حين دعاها إلى الله تعالى؛ لثلاث يكون للناس حجة بعد الرسل فيشهد عليها بالحق، فحيثتدل يتمنون لو أنهم سروا بالأرض، وسويت بهم، فيكونون نسيًا منسيًا، حالهم كحال سائر البهائم، وذلك من عظيم ما يرون من الهول والشدة، وهيئات لهم ذلك.

«وهكذا يدخل بعضهم بعضاً وتشهد عليهم جوارهم، وتتفكر شخصيتهم مزقاً وأحاداً يكذب بعضها بعضاً، وتعود كل جارحة إلى ريها مفردة، ويشوب كل عضو إلى بارئه مستسلماً، إنه مشهد عجيب رهيب تذهب من تصوره القلوب»^(٢).

ومن شهادة الجوارح أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَخْتَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوَزَّعُونَ ۖ ۝ حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهُوَ مَا شَهَدَ عَلَيْهِمْ سَمِعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجَلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لَمْ شَهَدْنَا مِنْ عَلَيْنَا فَالْأَوْ آنطَقْنَا اللَّهُ أَذْنَى أَنْطَقَ كُلَّ شَوْهِدٍ وَهُوَ خَلْقُكُمْ أَوْلَ مَرْءَوَةِ إِلَيْهِ تَرْجِعُونَ ۝ وَمَا كُنْتُمْ شَتَّرْنَاهُنَّ أَنْ يَشَهَدَ عَلَيْكُمْ سَمَعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكُنْ ظَنَنْنَاهُنَّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَذَلِكَ ظَنُوكُمُ الَّذِي ظَنَنْنَاهُ بِرَبِّكُمْ أَرْدَكُوكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الظَّاهِرِينَ ۝﴾ [فصلت: ١٩-٢٣].

فالآيات الكريمة تصف حال العباد المنكرين للمكتوب في صحفهم من السبات المطالبين بأن لا يكون الشاهد عليهم إلا من أنفسهم، فيختتم الله على أفواههم فلا تستطيع أن تنطق بشيء ثم يأمر أعضاءهم أن تشهد عليهم بما عملوا. والكافرون اعتادوا على الكذب في الدنيا، وظنوا أنهم يستطيعون أن يحققو عن طريقه فوزاً وتفعاً، وهكذا جاءت الآية؛ لتسد

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/٢٩٧٣.

وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْقَالَهَا ۝ وَقَالَ إِلَيْهِنَّ مَا لَمَّا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ إِنَّ رَبَّكَ أَوْعَى لَهَا ۝﴾ [الزلزلة: ٤-٦].

فالأرض تشهد على الإنسان بما عمل على ظهرها بعد إنكاره فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝﴾ [الزلزلة: ٤]. قال: (أندرون ما أخبارها؟) قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: (فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمية بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل عمل كذا في يوم كذا، بهذه أخبارها)^(١).

فإذا أنكر الخلق كل الشهود السابقين وكذبواهم ولدوا في الخصومة، أقام الله عليهم شاهداً منهم، فتشهد عليهم جوارهم (سمعهم وأبصارهم وجلودهم) بما قدموه من أعمال في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَهَّدُ عَلَيْهِمْ أَسْتَهْمُمْ وَلَيَدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝﴾ [النور: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْرَادِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشَهَّدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝﴾ [يس: ٦٥].

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٣٠١٢، كتاب التفسير، باب من كتاب قراءات النبي، ٢٨١/٢.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه». ولم يتعقبه الذهبي.

هناك توافق بين ما يدللي به المعترف وما يدللي به الشاهد^(٢).

وقد جاء حديث في الصحيح يجمع أغلب هؤلاء الشهود على المخلوق عند إنكاره فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (ضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أو تبسم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ألا تسألوني من أي شيء ضحكت؟) فقال: (عجبت من مجادلة العبد ربه يوم القيمة، يقول: يا رب، أليس وعدتني أن لا تظلمني؟ قال: بلى، قال: فإني لا أقبل علي شهادة شاهد إلا من نفسي، فيقول: أو ليس كفى بي شهيداً، وبالملائكة الكرام الكاتبين؟ قال: فيردد هذا الكلام مرات، فيختتم على فيه، وتتكلم أركانه بما كان يعمل، فيقول: بعدا لكم وسحقاً، عنكم كنت أجادل)^(٣).

وبعد كل هؤلاء الشهود على الخلق في ساحة العرض والحساب، وبعد أن يرى المخلوق الحق، ويتبين له أن الله لا تخفي عليه خافية، ويرى كل ما عمله في الدنيا مكتوباً في صحفته، وقامت عليه

عليهم هذا الباب الذي اعتادوا أن يدخلوا ويخرجوا منه.

في يوم القيمة يختتم تعالى على أفواههم ويعقد ألسنتهم، وتترك الشهادة إلى غير اللسان من أعضاء جسمه، بعد أن رفض هذا الإنسان شهادة الناس والملائكة عليه، فتشهد عليهم أعضاؤهم على غير ما كانوا يعهدون من أمرهم، وعلى غير ما كانوا يتظرون؛ لأنهم كانوا عنها يدافعون ويذبون في الدنيا، وبعدها تنقلب عليهم في الآخرة.

والناظر في الآية يرى أنه تعالى أسدن الختم إلى نفسه في حين أسدن الكلام والشهادة إلى الجوارح؛ لأنه لو أستدتها إليه لكان هناك احتمال في أن يكون ذلك جبراً وقهراً، والإقرار بالإجبار غير مقبول، فنسبها إليها، فتشهد باختيارها لخالقها بعد ما يقدرها الله تعالى على الكلام؛ ليكون أدل على صدور الذنب منهم^(٤).

وثمة لطيفة في تقديم الاعتراف أو الكلام على الشهادة، وذلك لمناسبة الواقع فالعادة جرت بأن تسير الأمور في القضايا على وفق هذا النسق، الاعتراف أولاً، والشهود ثانياً، وهذا ما بيته الآية الكريمة، وكذلك قدم؛ لأن دوره في هذه القضية أكثر فعالية وأبلغ دلالة من الشهادة، وبخاصة عندما يكون

(٢) انظر: تأملات في سورة يس، حسن محمد باجودة، ص ٨٧.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك، رقم ٨٧٧٨، كتاب الأهوال، ٦٤ / ٤.

قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجه»، ولم يتعقبه الذهبي.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧ / ٥٥٥ - ٥٥٦.

آيات كريمات تصور تخاصم الكافرين المجرمين مع أسيادهم وقادتهم المضلين لهم، فيقول الصحفاء التابعون للقادة المضلين لهم: ﴿إِنَّكُمْ كُلُّمَا تَأْتُونَ عَنِ الْيَمَاءِ﴾؛ لإضلالنا ومنعنا من سماع الحق واتباعه. فيرد المضلون على المستضعفين منكرين إصلاحهم إياهم، ويقولون لهم: ﴿فَالَّذِي لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٦﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِيْنَ﴾، براءة منهم بعد ما رأوا الحق بأعينهم وعاينوا العذاب الواقع بهم جميعاً لا محالة. و قريب من هذه الآيات نقرأ قوله تعالى: ﴿وَبَرَزَّوْا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الْصَّاغِرُوكُلَّمَا أَسْتَكِنُوكُلَّمَا كُنَّا لَكُمْ بَعْدًا فَهُمْ أَنْشَرُوكُلَّمَا مُقْتُلُوكُلَّمَا مِنْ حَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَقَّوْ فَالَّذِي هَدَنَا اللَّهُ هَدَنَا كُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْزَعَنَا أَمْ صَبَرَنَا مَا كَانَ مِنْ مَرْحِيص﴾ [ابراهيم: ٢١].

وغيرها من الآيات الكريمة. ومن التخاصم ما يحصل بين العبادين ومعبداتهم عندما يجمعهم الله في مكان واحد، وقد جاء ذلك القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَخْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ مَأْنَثُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هُنُّ لَأَءَ آمَّ هُمْ صَلَوَأَ السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ فَالَّذِي سَبَخْنَكَ مَا كَانَ يَلْبَيْغُ لَنَا أَنْ تَنْجُذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أُولَيَّهِ وَلَكِنْ تَمْتَهِنُهُ وَأَبْكَاهُمْ حَقَّ نَسْوَاهُ﴾ [الفرقان: ١٧ - ١٨].

الشهدود ويرى أنه لا برهان له ولا حجة، يقر ويعرف بما جنى وأفترف كما حكى عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَمْسَرَ الْيَمَاءِ وَالْإِنْسَانَ أَنَّهُ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ مَا يَأْتِي وَيُشَرِّعُكُمْ لِفَاءَ يَوْمَكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَفَرَّهُمْ لِحِيَةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذُبُّ كَافِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

٤. الخصوم بين يدي رب العالمين. من مواقف الحشر والحساب تخاصم الكافرين مع شركائهم ومصلحهم.

وقد جاءت آيات كريمات عديدة تبين هذا التخاصم منها ما جاء في تصوير التخاصم بين الأتباع مع قادتهم المضلين لهم في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَرْعَةٌ وَجِهَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَوْمَنَا هَذَا يَوْمُ الْيَمَاءِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُ بِهِ شَكِّيْبُونَ ﴿٢١﴾ أَخْسَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَجُهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوْمُ إِلَى صِرَاطِ الْجَنَاحِ وَقَفْوُهُرُّهُمْ سَنْشُوْنَ ﴿٢٣﴾ مَا لَكُرُّ لَا تَنْاصُرُونَ ﴿٢٤﴾ بِلْ هُرُّ الْيَمَاءِ مُسْتَشِمُونَ ﴿٢٥﴾ وَأَبْقَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْأَلُونَ ﴿٢٦﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُلُّمَا تَأْتُونَ عَنِ الْيَمَاءِ ﴿٢٧﴾ فَالَّذِي لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِيْنَ ﴿٢٩﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لِلَّهِ يَقُولُونَ ﴿٣٠﴾ فَأَغْوَيْتُكُمْ إِنَّا كَانَ غَوْيُنَ ﴿٣١﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَدِيْنِ فِي الْعَذَابِ مُشَرِّكُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفَعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصفات: ٣٥ - ٣٩].

الآخر عندما تقلب خلة الكافرين عداوة بينهم، أما المؤمنون فلا يصيّبهم خوف ولا حزن حيث الجنة مأوى لهم ولأزواجهم، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَسْعَةً أَنْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ إِلَّا أَخْلَاثُهُ يَوْمَئِمْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا مُتَقْتَسِطٌ ۖ يَعْبَادُ لَا حُرْفٌ عَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَشْرَكَ تَحْزِيرُونَ ۖ الَّذِينَ مَاءَمُوا بِعَيْنِنَا وَكَانُوا مُتَسْلِمِينَ ۖ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْ شَرِكُوا مُتَحْزِرُونَ ۚ ۚ﴾ [الشعراء: ۹۱-۹۹].

وقوله تعالى: ﴿ وَرَبُّنَتِ الْجَحِيمُ لِلْكَافِرِينَ ۖ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۖ مِنْ دُونِ اللَّهِ هُنَّ ۖ يَنْصُرُونَ وَلَمْ يَنْتَصِرُونَ ۖ فَكَبَرُوا فِيهَا هُمْ وَالْقَارُونَ ۖ وَحَمُودٌ لِلَّهِسَّ لَمْ يَعْمَلُونَ ۖ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۖ تَأْلُمُ إِنْ كَثَّا لَهُنَّ ضَلَالٌ مُّبِينٌ ۖ إِذْ سُوِّيَّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ وَمَا أَضَلَّ إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ۚ ۚ﴾ [الشعراء: ۹۹-۹۱].

ومن التخاصم ما يحصل بين الكافرين وقرنائهم، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَتَشَقَّقَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ۖ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ نَّهَا سَابِقٌ وَشَهِيدٌ ۖ لَقَدْ كُتِّبَ فِي عَقْلِكُمْ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنَّكُمْ غَطَّاءَكُمْ بِصَرْكُمُ الْيَوْمِ حَدِيدٌ ۖ وَقَالَ قَرِيبُهُمْ هَذَا مَا لَدَنَّ عَيْدٌ ۖ أَتَيْنَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْدِي ۖ مَنَعَ لِلْخَيْرِ مَعْتَدِلٌ مُرِيبٌ ۖ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مُلْخَرًا فَلَقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۖ قَالَ قَرِيبُهُمْ رَبِّنَا مَا أَطْهَيْتُمُونَا لَكُمْ كَانَ فِي ضَلَالٍ يَعْدِلُ ۖ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَنِي وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ۖ مَا يَبْدِلُ الْقَوْلُ لَدَنِي وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ۚ ۚ﴾ [الزخرف: ۶۶-۷۰].

ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِصَّ لَهُ شَيْكِلَاتٍ فَهُوَ لَهُ فَرِيقٌ ۖ وَلَهُمْ لِصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَمَحْسُبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ۖ حَقٌّ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَنْلَيْتَ بَيْنِ وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمُشْرِكِينَ فِيْنَ الْقَرِينِ ۖ وَلَكَ يَنْقُعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمُ الْكُفَّارَ فِي الْعَدَابِ مُشْتَرِكُونَ ۚ ۚ﴾ [الزخرف: ۳۶-۳۹].

ومن التخاصم ما يحصل في اليوم

المآل والمصير

المآل والمصير

جاءت مشاهد مآل ومصير الخلق في اليوم الآخر وجزائهم في كثير من آيات القرآن الكريم، ولو أردنا ذكرها مع بيانها لاحتاجنا إلى مئات الصفحات، والناظر إليها يجد أغلبها -إن لم تكن جميعها- جاءت على سبيل التقابل بين مآل ومصير المؤمنين وما آل وتصير الكافرين؛ ليصور ما للمؤمنين من نعيم في الجنان، وما لل مجرمين من عذاب في النيران، وقد جاءت هذه المشاهد ترغيباً وترهيباً، ترغيباً في الإيمان والعمل الصالح الموصى به إلى الجنان، وترهيباً من الكفر والمعاصي الموصى بهما إلى النيران، وهذا التقابل مقصود؛ إذ بضدها تميز الأشياء، ليتميز البوون الشاسع بين منازل المجرمين، ومراتب المؤمنين، معتمدة في أغلبها على التصوير الذي يعد «الأداة المفضلة لأسلوب القرآن»^(١).

ويلاحظ على هذه المشاهد أن التقابل لم يأت على نمط واحد، بل جاء متنوعاً، فأحياناً يكون التقابل ثلاثياً بين السابقين وأصحاب اليمين وال مجرمين نحو ما جاء في سورة الرحمن والواقعة، وتارةً يكون التقابل ثنائياً بين المؤمنين والكافرين، وهذا التقابل الثنائي أكثر ذكراً من الثنائي وسيأتي

(١) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب ص ٣٦.

تفصيله.
ومن أمثلة التقابل الثلاثي بين المؤمنين السابقين والمؤمنين من أصحاب اليمين والكافرين المجرمين قوله تعالى: **﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَتُهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوْصِي وَالْأَقْنَامِ ﴾**
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿هُنَّ دَهْرٌ جَهَنَّمُ الَّتِي يَرِكُمْ إِلَيْهِمْ مَمْلُوكٌ مَا كَانُوا يَكْرِهُونَ ﴾
﴿يَطْهُرُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ مَا كَانُوا فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّيهِ جَنَّاتٌ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿ذَوَانٌ أَفَانٌ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿فِيمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانٌ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿فِيمَا مِنْ كُلِّ فَتْكَمَةٍ زَوْجَانٌ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿شَكِينٌ عَلَى فُرُشٍ بَلَائِهَا مِنْ إِسْتَدْرَقٍ وَحَقَّ الْجَنَّاتِنِ دَانٌ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿فِيهِنَّ فَتَحَرَّثُ الظَّرْفُ لَمْ يَطْعِمُهُنَّ إِنَّمَا قَاتَلُهُمْ وَلَا جَانٌ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿كَانُهُنَّ أَلْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿مَلْ جَرَاءُ الْإِحْسَنِ لَا إِلَّا إِلَيْهِ أَخْسَنُ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٌ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿مَذَاهَاتٌ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿فِيمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿فِيمَا فَتَكَمَّهُ وَخَلَ وَمَكَانٌ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿فِيهِنَّ خَيْرٌ حَسَانٌ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿حُرُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْقِيَارِ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾
﴿أَتَ يَطْعِمُهُنَّ إِنَّمَا قَبَّلَهُمْ وَلَا جَانٌ ﴾
﴿فَإِنَّمَا إِلَّا رَبِّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾

أَخْبَثُ أَشْعَالَ (٤١) فِي سُورَ وَجَهِيرَ (٤٢) وَظَلَّ مِنْ
يَمْهُورَ (٤٣) لَا يَارِدُ وَلَا كَرِيدُ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ
ذَلِكَ مُتَرَفِّينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصْرُونَ عَلَى الْجِنْسِ الْعَظِيمِ
وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيْدَا مَنْتَنَا وَكَانَا شَرِيكَا وَعَظِيمَا
أَئْنَا تَبْغِيْعُونَ (٤٦) أَوْ مَا بَاْثُونَا الْأَوْلَونَ (٤٧) فَلَمْ
إِنَّ الْأَوْلَيْنَ وَالآخِرَيْنَ (٤٨) لَمْ يَجْهُوْعُونَ إِنْ يَقْدِتَ
يَوْمَ مَعْلُومٍ (٤٩) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْمَانَ الصَّالِحِينَ الْمُكْتَبِونَ
لَا كُلُونَ مِنْ سَجَرَتِنْ زَقْوَرِ (٥٠) فَالْأَقْرَبُونَ مِنْهَا الْبَطُونَ
فَشَرِيْعُونَ عَلَيْهِمْ لَعْنَيْمِ (٥١) فَشَرِيْعُونَ شَرِبَ الْمَيْمِ
هَذَا تَرْلُمُ يَوْمَ الْيَتِينَ (٥٢) [الواقعة: ٥٦-٧].

وفي نهاية تحليل الشواهد الثلاثية التقابل نجد أنه في سورة الرحمن كان التقابل الأساس بين السابقين وأصحاب اليمين كما مر، أما في سورة الواقعة فال مقابل يقع بين أصحاب اليمين وأصحاب الشمال. هذا التقابل الذي يعمد إليه دائمًا؛ ليرى البون بين المصيرين.

ولذا انتقلنا إلى النوع الثاني من التقابل، وهو التقابل الثنائي نجده أكثر وروداً من النوع الأول، وهذا التقابل الثنائي يكون متساوياً تقريباً في الآيات بين الصنفين، وأحياناً يكون التركيز على صنف أكثر من الآخر كما سيأتي.

ومن أمثلة النوع الأول التقابل بين حال المؤمنين في الجنة وحال الكافرين في النار، وذلك في قوله تعالى: «إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِنْ صَادَاءِ لِلطَّغَيْنِ مَقَابِاً (٢٢) لَيْلَيْنَ فِيهَا أَحْقَابِاً (٢٣) لَا

تَكَذِّبَانِ (٢٤) مُشَكِّنَيْنَ عَلَى رَقْرَقِ حُضْرِي وَعَبْرَقِي
جَسَانِ (٢٥) قِيَامِ الْأَرَدِ تَكَذِّبَانِ (٢٦) بَنَرَكِ أَسْمَ
رِيْكَ ذِي الْمَكْلِلِ وَالْأَكْلِمِ (٢٧) [الرحمن: ٧٨-٤١].

وفي موضع آخر يطالعنا تقابل ثلاثي آخر، ولكنه يصرح فيه بذكر أسماء أصحاب الجزاء، وذلك في موضعين من سورة الواقعة، في أولها وفي آخرها؛ ليتناسق البدء مع الختام في ذكر جزاء الناس في الآخرة.

الموضع الأول: قوله تعالى: «وَكُنْتُمْ أَرْوَجَا تَلَذَّتُ (٧) فَأَخْبَثُ الْمُتَمَمَةَ مَا أَخْبَثَ

الْمُبَتَّنَةَ (٨) وَأَخْبَثُ الْمُشَكَّةَ مَا أَخْبَثَ الْمُشَكَّةَ
وَالسَّيْقَنَ الْمَسِيقَنَ (٩) أَوْلَيْكَ الْمُقْرَبَنَ (١٠)
فِي جَنَّتِ الْتَّعْبِيرِ (١١) ثُلَّةُ مِنَ الْأَوْلَيْنَ (١٢) وَقَلِيلٌ
مِنَ الْآخِرَيْنَ (١٣) عَلَى شَرِّ مَوْصُونَةِ (١٤) مُشَكِّنَيْنَ
عَلَيْهَا مُسَقَّلِيْنَ (١٥) طَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَدَنْ مُخْلَدِيْنَ
يَا كَوَابِ وَلَبَارِيْقَ وَكَاسِ مِنْ مَعْنَى (١٦) لَا يُصَدَّعُونَ
عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ (١٧) وَفَكَاهَةُ مَمَّا يَتَخَرَّبُونَ (١٨)

وَلَقَرْ مَلِيزِ مَمَّا يَسْتَهِنُونَ (١٩) وَحُورُ عِنْ (٢٠) كَامِشَلِ
الْأَوْلُو الْمَكْبُونَ (٢١) جَزَّلَهُ مِمَا كَانُوا يَمْلُونَ (٢٢)
لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَقْوَا وَلَا تَائِيْمَا (٢٣) إِلَّا قِلَّا سَلَّمَا
سَلَّمَا (٢٤) وَأَخْبَثُ الْيَمِينَ مَا أَخْبَثَ الْيَمِينَ (٢٥)
فِي سَدِرِ مَخْصُودِ (٢٦) وَطَلَحَ مَنْشُورِ (٢٧) وَظَلَّ مَدْهُورِ (٢٨)
وَمَلَوْ مَسْكُوبِ (٢٩) وَفَكَاهَةُ كَيْفَرِ (٣٠) لَا
مَقْطُوعَةُ وَلَا مَمْنُوعَةُ (٣١) وَفَوشِ مَرْفُوعَةُ (٣٢) إِنَّا
أَشَأْتُمْ لَانْشَاءَ (٣٣) جَعَلْتُمْ أَبْكَارَ (٣٤) عَرِيَّا أَتَرَابَاً
لَا يَسْبَحِ الْيَمِينَ (٣٥) ثُلَّةُ مِنَ الْأَوْلَيْنَ (٣٦)
وَثُلَّةُ مِنَ الْآخِرَيْنَ (٣٧) وَأَخْبَثُ الشَّيْلَ مَا

المحسسة المتخيّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة»^(١).

وجريدة على سنن القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، يذكر سبحانه حال الأنبياء السعداء من أهل الجنة بعد ذكر

حال الأشقياء من أهل النار فيقول سبحانه: **﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمةٌ﴾** **﴿لَسْعَنَهَا رَاضِيَةٌ﴾** **﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَّةٍ﴾** **﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغْيَةً﴾** **﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَّةٌ﴾** **﴿فِيهَا شَرْرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾** **﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾** **﴿وَمَنَارَقٌ مَصْفُوفَةٌ﴾** **﴿وَرَدَائِيٌّ مُبْتَثَثَةٌ﴾**.

وفي مواضع أخرى نجد تقبلاً ثنائياً بين جزاء المؤمنين والكافرين في الآخرة، ولكنه لا يأتي متساوياً في الطول بينهما، فأحياناً يكون مشهد جزاء الكافرين قصيراً في مقابل جزاء المؤمنين الذي يطول، أو يكون مشهد جزاء المؤمنين أقصر من مشهد جزاء الكافرين، وكل موافق للسياق الذي جاء فيه. فمن النوع الأول قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَغْنَيْنَا الْكَافِرِينَ سَلَسِلًا وَأَغْلَلَاهُ وَسَعَيْرًا إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشَرُّونَ مِنْ كُلِّ إِنْ كَانَ مِرَاجُهَا كَأُورًا عَيْنًا يَشَرُّ بِهَا عَيْنَ اللَّهِ يُمْجِرُونَهَا تَفْجِيرًا يُوقِنُونَ بِالنَّدْرِ وَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا وَيُطْمِئِنُونَ الْطَّعَامَ عَلَى حَيْثِهِ يَسْكِنُهَا**

(١) مشاهد القيمة في القرآن. ٦.

يَدْعُونَ فِيهَا بَرَدًا وَلَا شَرَابًا إِلَاحِيَّمَا وَغَسَافًا جَرَاءَهُ وَفَانًا إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا وَكَذَبُوا إِنْ يَأْتِنَا كَذَابًا وَكُلُّ شَفَعَ أَخْصَيْنَاهُ كَيْتَابًا فَذَوْقُوا فَلَنْ زَرِيدُكُمْ إِلَّا عَذَابًا إِنَّ الْمُتَقِينَ مَفَارِزًا حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا وَكَوَافِعَ أَزْرَابًا وَكَاسَادَهَا فَا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَفْوًا وَلَا كَذَابًا جَرَاءَهُ مِنْ رَيْكَ عَلَةَ حِسَابًا [النَّبَأ: ٣٦-٢١].

وفي موضع آخر يطالعنا تقابلُ بين وجوه الأشقياء ووجوه السعداء، وذلك في قوله تعالى: **«هَلْ أَنْتَكَ حَدِيثُ الْمُنْشَيَةِ وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ خَلِيلَةٌ عَالِمَةٌ نَاصِبَةٌ قَصْلَ نَارًا حَامِيَةٌ شَقَقَتْ مِنْ عَيْنٍ مَأْيَقَةٌ لَيْسَ لَهُ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرَبِعٍ لَا يَسْتَهِنُ وَلَا يَقْنِي مِنْ جُوعٍ وَجْهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمةٌ لَسْعَنَهَا رَاضِيَةٌ فِي جَنَّةٍ عَالِيَّةٍ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغْيَةً فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَّةٌ شَرْرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ وَمَنَارَقٌ مَصْفُوفَةٌ وَرَدَائِيٌّ مُبْتَثَثَةٌ**» [الغاشية: ١٦-١].

آياتُ تعرّض مقابلاً مقابلةً كاملةً المشاهد، متناسبةً للأجزاء بين جزاء الفريقين؛ إذ تقابل بين وجوه المجرمين من أصحاب النار وهي خاشعةً ذليلةً مع ذكر صنوف عذابهم المعنوي والحسني، ووجوه المتقين من أصحاب الجنة وهي ناعمةً سعيدةً مع ذكر صنوف جزائهم المعنوي والحسني، عن طريق التصوير الذي يعد «الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة

لَا طَلِيلٌ وَلَا يَقُولُ مِنَ الْهَمِّ ٢٣ إِنَّهَا تَرْبِي بِشَرَبِ
كَالْنَصْرِ ٢٤ كَانَهُ جَهَنَّمُ صَفَرٌ ٢٥ وَلِلْيَوْمِ
لِلشَّكَدِينَ ٢٦ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطَقُونَ ٢٧ وَلَا يَوْمَ ذَنَبٍ
لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ٢٨ وَلِلْيَوْمِ لِلشَّكَدِينَ ٢٩ هَذَا
يَوْمُ الْفَصْلِ جَمِيعَكُمْ وَالْأُولَئِينَ ٣٠ فَإِنْ كَانَ لِكُوكِيدٍ
فِي كِيدُونَ ٣١ وَلِلْيَوْمِ لِلشَّكَدِينَ ٣٢ إِنَّ الْمُتَقْبِنِ
فِي ظَلَلٍ وَغُيُونٍ ٣٣ وَقُوَّةٌ مَا يَشْتَهُونَ ٣٤ كُلُّوا
وَأَشْرِبُوا هَيْنَا مَا كُنْتُ تَسْمَلُونَ ٣٥ إِنَّا كَذَلِكَ بَخْرِي
الْمُحْسِنِينَ ٣٦ وَلِلْيَوْمِ لِلشَّكَدِينَ ٣٧ [المسلات:
٤٥-٢٩].

فَآياتٌ جزاء الكافرين أكثر من آيات جزاء المؤمنين، وجاء النظم بهذه الصورة؛ لأن سياق السورة لتهديد الكافرين ووعيدهم، لذا نجد أنه حتى جزاء المؤمنين ختم بـ **وَلِلْيَوْمِ لِلشَّكَدِينَ**. فالسياق سياق ترهيب وتخويف لذا ناسبه طول جزاء الكافرين.

مواضيع ذات صلة:

البعث، الثواب، الجزاء، الجنة،
الحساب، القبر، النار

وَتَنِمَا وَأَسِدًا ٤٨ إِنَّمَا تُعْصِمُكُلُّو جَهَنَّمُ مِنْ كُلِّ جَرَاجَةٍ
وَلَا شَكُورًا ٤٩ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطِيرًا ٥٠
فَوْقَهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَاهُمْ نَفَرَةً وَسُرُورًا ٥١
وَجَرَّهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحِيرًَا ٥٢ شَكِينٌ بِنَيَّابِ عَلَى
الْأَرْضِ لَكَ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمَسًا وَلَا زَمْهِرِيَا ٥٣ وَدَائِنَةٌ
عَلَيْهِمْ طَلَلُهَا وَذَلِكَ قُطْوُفُهَا تَذَلِّلاً ٥٤ وَطَافَ عَلَيْهِمْ
يَعْاِيَةٌ مِنْ فَضْلَةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ٥٥ قَوَارِيرًا مِنْ فَضْلَةٍ
فَدَرَّهَا لَقِيرًا ٥٦ وَيَسْقُونَ فِيهَا كَأسًا كَانَ مِنْ أَجْمَعِهَا رَجَبِيَا
عَيْنًا فِيهَا تَسْمَعَ سَاسِيلًا ٥٧ وَيَطْرُفُ عَلَيْهِمْ لَذَانٌ
مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتُمْ حَسِينَهُمْ لَوْلَا مُتَشَوِّرًا ٥٨ وَلَذَانَتْ مَمَّ
رَأَيْتَ فَعَيْنًا وَمَلَكًا كَيْرًا ٥٩ عَلَيْهِمْ شَيْبٌ سُدُنٌ خَضْرٌ
وَلَا سَبِيقٌ وَحَلُوًا أَسَاوَرٌ مِنْ فَضْلَةٍ وَسَقَاهُمْ رَهَبَهُمْ
شَرَابًا طَهُورًا ٦٠ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُوكِيدٌ وَكَانَ سَيْكِيرٌ
مَشْكُورًا ٦١ [الإنسان: ٤-٢٢].

فهذه الآيات يلاحظ عليها قصر مشهد جزاء الكافرين الذي جاء في آية واحدة في مقابل مشهد جزاء المؤمنين الذي جاء طويلاً، وهذا يرجع إلى طبيعة السورة التي تركز على فضل الله تعالى ونعمه على خلقه، بالخلق والإيجاد والعلم والمعرفة وغيرها، فناسب طول جزاء المؤمنين وذكر نعيمهم لهذه النعم.

وإذا أخذنا شاهداً على طول جزاء الكافرين وقصر جزاء المؤمنين، نجد أنه كذلك مناسباً للسياق الذي هو فيه نحو ما جاء في قوله تعالى: **أَنْطَلَقُوا إِلَى مَا كَثُرُوا**
ثَكَدُوبُونَ ٦٢ **أَنْظَلَقُوا إِلَى ظَلَلِ ذَي ثَلَاثِ شَعَرٍ** ٦٣